FTDES

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

أولاد الحوم

المواطنة المتمردة والحق في المدينة

قراءة في انتفاضة الشباب جانفي- فيفري 2021

©Yassine Gaidi

أولاد الحوم

المواطنة المتمردة والحق في المدينة

قراءة في انتفاضة الشباب جانفي - فيفري 2021

ماهر حنين

المحتوي

04 تقديم

06 السياق السياسي المأزوم والغضب المنتظر

11 الأزمة الصحية وتأجيج مشاعر الغبن الاجتماعي

16 أولاد الحوم: المواطنة المتمردّة

42 الحق في المدينة: أولاد الحوم وشـــباب المجتمع المدني معا: "حاصر حصارك لا مفر فأنت الآن حرّ"

68 خاتمة

تقديم

تعدّ هذه الورقة التحليلية مساهمة في تقفّي أثر حراك اجتماعي شغل اهتمام الرأي العام التونسي والاعلام الدّولي والمحلي على حدّ السواء، ونعني بذلك انتفاضة شباب الأحياء الشعبية التي رافقت الذكرى العاشرة للثورة. وهي المناسبة الأبرز في مطلع هذا العام التي نعود عبرها مرّة أخرى للربط بين تناول التحوّل الديمقراطي في دلالته المركّبة والشّباب كفاعل اجتماعي مركزي في هذا التحوّل الرّاهن وفي رهاناته المستقبليّة .

لقد انخرطت عدة جهات بحثية واعلامية ومدنية على مدى السنوات السابقة فيما يمكن عدّه جهدا مشتركا وجماعيا لرصد وتحليل سوسيولوجيا الشباب وسوسيولوجيا الحركات الاجتماعية عامة في سياق مسار تاريخي انطلق مع سقوط الاستبداد ومسار تحول ديمقراطي لا يزال، رغم كلّ الصعوبات، يغالب النفس لتجنب السقوط والانتكاس.

وما يزيد في تأكيد أهمية هذا الحقل البحثي هو ايضا تعدد المداخل المرتبطة به، فالديمغرافيا وأشكال التعبير الفنية والاحتجاجية الجديدة والثورة الاتصالية الرقمية ومتغيرات

المشاركة السياسية، وكذلك التطرف العنيف والهجرة وشرنقة الفردانية...، هي بعض من عناوين لمواضيع اهتمام مخصوصة غايتها دراسة مجتمع الشباب في تفاعلاته ومخاضاته وتمثّلاته. ومن خلالها تحوّلات المجتمع التونسي عامة ومساراتها المفتوحة.

مكسب هذه الأعمال البحثية والميدانية بعد 2011 هو تحرّرها داخل الجامعة من سطوة المراقبة الادارية التي قطعت زمن الاستبداد أنفاس البحث العلمي أو كادت، وحالت دون أعمال ميدانية لدراسة المجتمع وتزامن ذلك مع تفتح مائة زهرة في حدائق المجتمع المدني الحرّ والمستقلّ، حثّت على إعداد الدّراسات والندوات والبحوث.

ما حرّك دوافع هذه الورقة هو أوّلا راهنيّة الحدث ذاته وكذلك جملة الرسائل التي حملها ارتباطا بالمجال الجغرافي الأساسي وهو الاحياء الشعبية وبالتقاطع الذي جسّده بين فئات شبابية وحركات اجتماعية ومدنية كانت تبدو، لمن يشيح ببصره، متباعدة بل متنافرة، وهي مرتبطة أيضا بالقطيعة الصريحة التي كشفها هذه الحراك الأخير بين المجتمع التحتي والنخب الحاكمة والمهيمنة عامة، مما يطرح أزمة الديمقراطية التمثيلية التونسية، رغم حداثة عهدها، من زوايا متعدّدة.

السّيــاق السّيـاسي المأزوم والغضب المنتظر

لم تكن تحركات الشــباب خلال شــهر جـانفي الفـارط مفاجئة لأحد، فلا من جهة المؤسـسـات الرسـمية للدولة[1] ولا من جهة جمعيات ومنظمات المجتمع المدني التي كانت ترصــد حركية المجتمع التحتي والشـبابي تحديدا. كانت تحركات الشّـارع وغضـبه حـدثا غير متوّقع والأمر يختلف هـذا العـام عمـا صـــار يعرف في تونس منذ عقود بتحرّكات شــهر جانفي الموســمية، إذ تجمّعت جملة من العناصــر الغير مســبوقة الاقتصــادية والســياســية والصــحيّة. لتجعل من غضــب الاحياء هذا العام خارج الرؤية النمطية

فلقد فهم قرار الحجر الصحي لمدة أربعة أيام ذو الفاعلية الوقـائيـة المحـدودة وفق المختصــين والأطبّـاء على أنـه " حجر سـياسـي " هدفه التّوقيّ من تجمعات شـعبية وشـبابية بمناسـبة الـذكرى العـاشــرة للثورة. كمـا أنّ قراءة الأرقـام والمعطيـات التي تداولها الاعلام والمجتمع المدني على مدى الأشـهر وحتي السـنوات الأخيرة كـانـت من جهتهـا تؤشــر الى حجم الغليـان و القلق

[1] La carte des inégalités en Tunisie INS et la BM 2020

الاجتماعيين الصــآعدين من المجتمع والذي تشــهد عليه الارقام التالية .

جدول حجم التحركات للأربعة سنوات السابقة

السنة	حجم الاحتجاجات الجماعية
2016	8713
2017	10452
2018	9356
2019	9091

المصدر المرصد الاجتماعي للمنتدىFTDES التقارير السنوية

التقرير الأخير لسنة 2020 يؤكد هذا المنحى حيث سجلنا . تواصــل حضــور المســألة الاجتماعية، وإن بشــكل مغاير عن الســنوات الســابقة، تزامنا مع الأزمة الصحية وصــعود متزايد " لطلب الدولة " [2] إذ بلغت التحركات الاحتجاجية العشــوائية 5727 بنسبة 65،4 ٪ وتميزت بنزعة قصووية تؤكد ثقل آثار الازمة الصحية وتوتر العلاقة بين الفئات الهشة والدوّلة.

كما سجلنا وصــول 12883 مهاجرا تونســيا الى الســواحل الإيطالية ومنع 13466 مجتازا من الوصول، ومازال معدل الانقطاع الدراسي سنويا يتجاوز عتبة المائة ألف لنذكر أن الرقم المخيف

[2] أنظر سليم بين يوسف التقرير السنوي للحركات الاحتجاجية لسنة 2020 منشورات المنتدي التونسي للحقوق الاقتصادية و الاجتماعية (طلب الدّولة في قلب الاقتصاد الأخلاقي لتحركات 2020)

سـجّل في سـنة الدراسـية 2016/2015 والذي بلغ 160 ألف منقطع.

على هذا أسـاس هذه الصـورة الاجتماعية القاسـية نقول بأنّ التصـويت التوافقي على الدسـتور ثمّ كلّ سـياسـة التوافق التي تحكمت في الحياة السـياسـية منذ 2014 بين النهضـة ونداء تونس أولا ثم بين النهضـة ورئيس الحكومة السـابق يوسـف الشّـاهد وحزب تحيا تونس لم تقترح حلولا فعلية لمشـاكل البلاد ولم تكن كافية بالنتيجة لوقف دورة الاحتجاج المتجددة ودخول فاعلين جدد دائرة الفعل التعبوي ،ونعني هنا بدورة الاحتجاج كما عرفها سيدني تارّو Sidney Tarrow توفّر العناصر التالية "موجات صعود ثم هبوط من الافعال الجماعية الوثيقة الصلة ببعضـها ، و ردود فعل مولدة ردّا على تلك الأفعال" .ويشـتمل مفهوم دورة التعبئة على خمسـة عناصـر: أولا تزايد كثافة الصـراع، ثانيا انتشـاره الجغرافي والاجتماعي، ثالثا ظهور أفعال عفوية، و رابعا كذلك تشكلّ مجموعات منظمة جديدة ، خامسا نشوء رموز جديدة.[3]

[3]دورة التعبئة قاموس الحركات الاجتماعية ص 147 سيسيل بيشو، أوليفييه فيليول، ليليان ما تيو، ترجمة عمر الشّافعي مبادرة الاصلاح العربي

فالسـياق التاريخي الذي انطلق مع 2011 ثم شـهد بعد 2014 منعرجا جديدا إثر المصـادقة على الدّسـتور في خاتمة مرحلة مفصـلية من الاسـتقطاب الثنائي الحاد العلماني-الاسلامي ، أكّد القطيعة الحاصلة تدريجيا بين النخب الحاكمة رغم تجدّدها النسبي ومع منظومة المؤسسات الجديدة من جهة و حركية المجتمع العميق و التحتي ففي دراسة أعدّتها جمعية لمّ الشـمل أكّدت النتائج ارتفاع الرأي السـلبي لدي الشـباب تجاه النخبة السياسية التي لا تعبر عنهم اذ صرّح 84٪ من المستجوبين بان النخب السياسية تخدم مصالحها فقط [4]

من جهة أخري وبعد الشـغف الديمقراطي والإنتخابي لسـنة 2011 ثم 2014 حملت نتائج الانتخابات البلدية لسـنة 2018 رسـالتين: الأولي هي تتدني نسبة المشـاركة الي 37،7٪ بعد أن كانت 68،3٪ سـنة 2014، أما الثانية فكانت بداية تراجع قوة الأحزاب وصعود القائمات المستقلة كتنويعات مواطنية محلية لا نمطية للمشـاركة الديمقراطية والتي حصـدت 32،9٪ من جملة الأصوات. وحققت العديد منها فوزا على النهضة والنداء معا.

[4]لم الشمل جمعية المواطنة والثقافة والتضامن. دراسة محدّدات تصويت الشباب التونسي في انتخابات 2019 إعداد حافظ شقير نوفمبر 2020

انتخابات 2019 أكدت هذا المنحى السلبي تجاه النخب السياسية وتجاه الاحزاب التقليدية ومثّل مرور نبيل القروي وقيس سعيّد للدور الثاني رجة تحت أقدام التنظيمات التقليدية. ورغم التناقض بين الرّجلين وتباين الدّوافع التي تحركهما فإنهما جاءا من خارج منظومة الأحزاب التقليدية واللاّفت خاصّة هو التعاطف الشبابي مع أستاذ القانون الدستوري قيس سعيّد ذلك أن 37 ٪ من الشريحة العمرية 18-25 صوّتت لفائدته وترجمت انتخابيا أجواء التفاعل التي شهدتها حملته التي كانت الأقل كلفة مالية والأقل ضجيجا إعلاميا.

من جهة أخرى، رسمت نهاية التوافق الاسلامي – العلماني وتآكل مصداقيته خطوط صراع اجتماعي صريح تتعلق هذه المرّة بالشّغل والتنمية ومقاومة الفساد والمساءلة وكذلك أشكال من المطالبة الرّاديكالية بالحريات الفردية والأساسية عبر دورة احتجاجية لا تزال مفتوحة ولا تزال تعتمل تفاعلاتها التحتية بلا كلل لتشكّل ضربا من الحضور السياسي الشبابي الجديد والمختلف عن الصيغ الكلاسيكية والشّاهد على توجّه جذري نحو ديمقراطية دامجة لكلّ الفئات.

الأزمة الصحية: وتأجيج مشاعر الغبن الاجتماعي

يتكرّر الحديث ودون مبالغة عن أزمة مركّبة منذ نتائج انتخابات 2019 التي أفرزت توازنات برلمانية صعبة التوليف سواء لإدارة الحكم أو لتنظيم المعارضة، حيث بدا المشهد البرلماني رغم شرعيته الانتخابية غير ممثّل حقيقة للمجتمع التونسي ولتناقضاته، وهو الوجه المحلي لأزمة الديمقراطية التمثيلية عالميا، حيث أصبحت ديمقراطية الساحات العامة ترفع شعار " أنتم لا تمثلوننا " في إشارة للنخب السياسة الحاكمة رغم شرعيتها الانتخابية. نضيف الى ذلك بقاء دور قيس سعيد خارج دائرة المبادرة الفعلية ونحن نقترب من نصف المدة الرئاسية

العنصر الاخر للأزمة هو التوتر الدّائم بين رئيس الجمهورية والمنظومة البرلمانية والسياسية عامة وصلت اليوم الى حدّ القطيعة المعلنة واستعصاء الحوار مما هزّ صورة الدولة لدي مواطنيها وفي الخارج وجعلها تبدو مفككة، فضلا عن ضعف قدرتها على الاستجابة لطلبات المجتمع الحيوية.

من جهتها عمّقت الأوضاع الصحية العالمية والتي دخلناها بداية من مارس 2020 بسبب جائحة كورونا الأزمة التونسية لتصبح أزمة مفتوحة، بعد تعطّل مؤسسات الحكم بناء على نتائج

الانتخابات، وصرنا منذ ذلك الحين أمام أزمة مركّبة اقتصادية صحية وسياسية واجتماعية. وفي الوقت الذي كانت فيه الحياة السياسية داخل المؤسسات تنحدر الى أسفل الدّرجات و تتعمق من خلالها القطيعة بين النخب الحاكمة و الفئات الشعبية. كانت تعبيرات الفقر والخصاصة والهشاشة الاجتماعية تحتل المشهد الاعلامي التقليدي والافتراضي وأصبح "فاقدو الوجه أو اللاّمرئيون "، وهم أولئك الذين لا تريد سلطة المهيمنين رؤيتهم ولا الاعتراف بهم، يملؤون الفضاء العمومي ويعلنون حضورهم السياسي بمعجميتهم وأشكال تعبيرهم الخاصة. وكان حضورهم الأخير زمن الجائحة كاشفا لحدة الفوارق الطبقية والاجتماعية التي تجعل مخاطر الأزمة الصحية المباشرة وتبعاتها الاجتماعية والاقتصادية أكبر وزرا على الفئات الهشّة.

وقد شكّلت الاحياء الشعبية هذه المرة مسرحا مفتوحا لكشف حدة الفوارق الاجتماعية وحجم الهوة في طرائق العيش بين التونسيين، وتصاعدت مرّة أخرى تعبيرات الوصم الاجتماعي لسكان الاحياء الشعبية وخاصة للشباب دون فهم فعلي وعميق لتجربة الحياة اليومية لهذا الشباب منذ سنوات، وخاصة على امتداد فترة الحجر والخوف من تفشي الوباء والتي بينت أن التعامل مع المجتمعات المتعددة والمتفاوتة داخل نفس المجتمع لا يختزل في نماذج بيروقراطية وتقنية تماهي بين حوكمة المؤسسات وحوكمة المجتمعات.

فالدعوة الى الحجر كإجراء كلي لم تستحضر خصوصية العيش والسكن وفضاءات اللقاء والترفيه والنشاط الاقتصادي اللاّشكلي وآثار التوقف عن العمل اليومي كمورد رزق حيوي.

لقد تضافرت ضغوطات الحجر وتفاقمت درجات الهشاشة الاجتماعية وتتالت محطّات الغضب المعلن والدفين خاصة بعد حادثة غرق الطفلة فرح حمايدي، وهي من سخرية الأقدار من مواليد جانفي 2011، في منطقة البحر الأزرق في أكتوبر2020، وبعد هدم كشك في القصرين على رأس صاحبه عبد الرزاق الخشناوي -52 سنة -وهو نائم داخله، و في نفس الشهر وفاة الطبيب الشاب بدر الدين علوي -26 سنة - في جندوبة بسبب عطب في المصعد الكهربائي في ديسمبر بسبب حادثة المصعد المعطّل بالمستشفى الجهوي.

ليست هذه الأحداث الأليمة سوى إحدى العلامات التي تتكرّر لتزيد من مستويات هشاشة الثقة بين المجتمع والدّولة وفقا لعلاقة تجعل من منسوب الثقة يتناسب مع منسوب الهشاشة الاجتماعية والرأسمال الاجتماعي كما خلص الي ذلك دونيس روسو [5] . Denis Rousseau .

تقاطعت هكذا عدة مؤشرات إحصائية وتجارب معيشة تراجيدية ودرامية لتعلن حجم اللاّمساواة والعنف الاجتماعي الملموس

[5] ذكره عبد الله حتوس أسئلة الثقة الهشة بين المواطن و الحكومة هسبريس 30 مارس 2021

حيث بلغت حسب المؤشرات الأولى نسبة الفقر المعلنة رسميا 15،3٪ موزعة على المناطق الريفية 26٪ و15٪ في المدن الصغرى والمتوسطة و6،3٪ في المدن الكبرى، في حين تحيل الثانية إلى تقاسم مشاعر وأحاسيس الغبن والتهميش والعنف الرمزي لدى قطاعات واسعة من المجتمع، وخاصة لدى الشباب، لتجعل من الذكرى العاشرة للثورة محطة ذات دلالة سياسية مكثفة.

ما تهدف اليه هذه الورقة التحليلية هو تسليط الضوء على خصوصية الغضب الشّبابي في الذكرى العاشرة للثورة وسنحصر اهتمامنا في الفترة الممتدة بين شهري جانفي وفيفري 2021 وتحديدا سلسلة التحركات الحاصلة بين (مسيرة احباء النادي الإفريقي يوم 9 جانفي إلى مسيرة يوم 6 فيفري في الذكري الثامنة لاغتيال الشهيد شكري بلعيد) وهو ما سنسعى الى تحقيقه في مرحلة أولى من خلال العودة الى مقولة "أولاد الحوم"[6] المتداولة في الحراك الشبابي الأخير

[6] Paul Sebag, Tunis : Histoire d'une ville, histoire et perspectives méditerranéennes (Pars : L'Harmattan, 1998) ; voir pour plus de détails :
- Fredj Stambouli، «Sous-emploi et espace urbain des bidonvilles au Maghreb،» Revue tunisienne de sciences sociales، nos. 28- 29 (1972)، aussi Fredj Stamboli ، urbanisation difforme et émergence d'une nouvelle société urbaine au Maghreb ، les temps modernes octobre 1977 n 375 ، pp 249-272 on lie depuis un appel à '' des nouvelles recherches sur le sous-prolétariat des bidons villes et des médinas devraient à l'avenir élucider d'avantage leur conditions sociologiques réelles elle nous permettraient de connaitre le

باعتبارها مقولة تحليلية ممكنة للبعدين الجيلي والمجالي للتحركات الأخيرة، بل تعود بنا الى موضوع بحثي متحوّل في علم الاجتماع الحضري في تونس منذ عقود.

المرحلة الثانية من هذه الورقة التحليلية تهتم بأشكال الترابط والتجسير التي تحققت بين شباب الاحياء الشعبية والنشطاء الشبان في جمعيات ومنظمات وفعاليات المجتمع المدني المتنوعة وتناول فرضيات أولية لفهم ديناميكيات ودلالات هذه العلاقة.

pouvoir réel qu'exercent ces populations sur la vie sociale et politique et d'évaluer le degré de la leur conscience politique ''

- M Chabbi، «Une nouvelle forme d'urbanisation à Tunis : L'habitat spontané péri-urbain،» (Thèse de Doctorat en Urbanisme et Aménagement، Université de Paris Val-de-Marne، IUP de Paris، Créteil، 1986).

-Olfa Lamloum et Mohamed Ali Ben Zina (dir) les jeunes de Douar Hicher et d'Eattadhamen، Arabesques 2016

أولاد الحوم: مواطنة متمرّدة

بقدر ما مثلت متابعة التحركات الاحتجاجية على مدى السنوات اللاحقة للثورة موضوع إحصاء ودراسة بالنسبة للمجتمع المدني فإنها ما فتئت توفر مادة عمل هامة لقيس التحوّلات الاجتماعية والسياسية العميقة التي يعيشها المجتمع والتي تمسّ منظومة القيم المتحولة بعد سقوط التسلطية، فالمجتمع الجديد في ضلّ مرحلة تحوّل ديمقراطي ما بعد استبدادي صار مؤهلا لإنتاج تعبيرات احتجاجية ضاغطة على المؤسسات وهو ما ندرجه ضمن التّشكل والتّجلي التّدريجين للمواطنة الفاعلة والاجتماعية كمواطنة معاشة وليس كمقولة قانونية مجرّدة . أي التّحوّلات التي تمسّ كلّ الفاعلين الاجتماعيين و الفئات لا فقط النخب و الفئات العليا .

زاوية نظر هذه الورقة وموضوعها إذن هي التحركات الشبابية الاخيرة لشهري جانفي وفيفري 2021 والتي حملت معها مؤشرات لفعل جماعي جديد ينشأ لا على الركح المهني لمجتمع العمل أو الركح الجامعي للحركة الطلابية، بل على ركح المجال السكني والعيش المشترك وهو الحي، وما يوفره من فرص لروابط اجتماعية وانسانية متجددة تنعكس من خلال قدرات شبكية

وتوق للعمل الافقي لدي الشباب بالدّرجة الأولى، ثم يتمددّ ويسعي للحضور في المجال الحضري للمدينة.

مركزية الحي في تشكيل الهوية الجماعية للشباب جاءت كذلك على لسان شباب الكرم الغربي قبل اربعة سنوات فهم "يلاحظون الفرق على مستوى البنية التحتيّة والمستويات المعيشّية والّنفاذ إلى المنتجات الاستهلاكيّة. بيد أن أّول شيء يستغربونه في نمط عيش سكان الأحياء السكنيّة المجاورة في سيدي بوسعيد والمرسى، هو ذلك الانطواء على الذات الفردية المفرطة وبرود العلاقات الانسانيّة وحتّى الهدوء الذي يخيّم على تلك الأحياء، وكيف أنّ ذلك يتضارب مع التّضامن والتفاعل الاجتماعي الّشديد والأجواء الصاخبة في حيّهم " [7]، فالتمييز الاجتماعي الناتج عن تقسيم السكان من خلال مناطق اقامتهم ولّد لدي الشباب تباعدا رمزيا بين نمطين من الحياة .

الأولى صاخبة وجماعية والأخرى "حبيسة المياه المتجمدة للفردانية "، وفق التعبير الماركسي و. بالعودة الى تحركات جانفي

[7] المراهقة في الكرم الغربي سبعة سنوات بعد الثورة دراسة حول المراهقة في حي شعبي من الضاحية الشمالية. مبدعون 2018

فيفري نلمس هذا البعد " الهوياتي الجماعي" المقترن بالحي لدي شباب الاحياء الشعبية.

لنقف أولا على حجم هذه التحركات ونسـق تطورها، والتي انطلقت يوم 9 جانفي ب 46 تحركا، وتعود يوم 6 فيفري الى نفس الرقم، غير أن ذروة هذه التحركات كانت على امتداد الأيام الأربعة ل 14 -15 – 16 -17 جانفي بحاصل 204 تحركا.

رسم بياني- 3 – رصد التطور اليومي للتّحركات الاحتجاجية

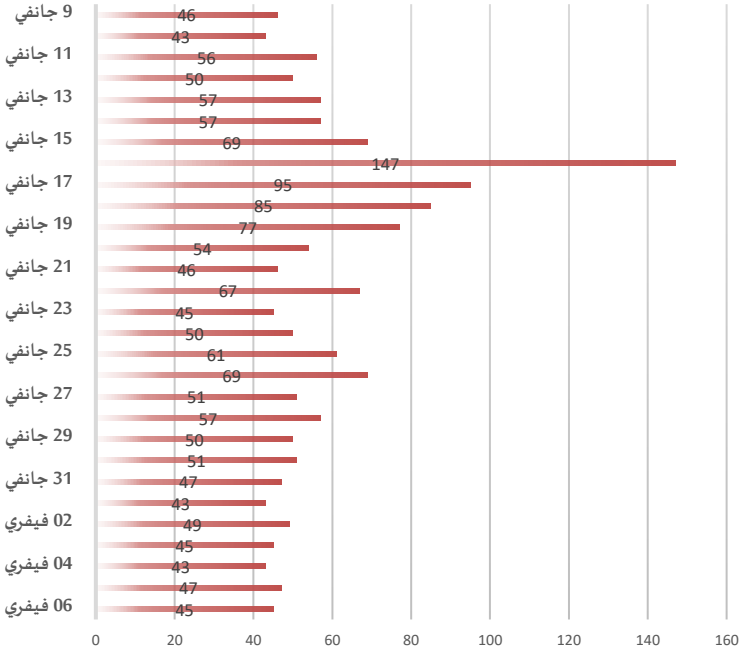

المصدر: المرصد الاجتماعي للمنتدي تصميم نجلاء عرفة

تعاطت عديد الخطابات خاصة مع بداية التحركات مع شباب الاحياء الشعبية من جهة الوصم السلبي والتجريم والمخاطر أو من جهة رؤية " الأمراض الاجتماعية " وهو ما مثّل في نظرنا مشكلة من جوانب ثلاث: الأول معرفي ويتلخّص في حصر التحليل السوسيولوجي في ترسيمة تبسيطية وضيقة لا تأخذ بعين الاعتبار تعقّد الحياة الاجتماعية للشباب وتعدد محدّداتها ومتغيراتها والعوامل البنيوية المنتجة للسلوك الاجتماعي، فالرّبط بين شباب هذه الأحياء والجريمة وتفشي المخدرات والتّواكل وضعف الوازع المدني، وعند البعض، الربط بين الفضاءات الشعبية والتطرف العنيف .. يؤدي الى ضرب من العماء المنهجي فضلا على أنه يسقط كلّ تحليل في التوظيف السياسي لفائدة المهيمنين ولا يربط بين تأثير المحدّدات الاجتماعية والاقتصادية وسلوك الأفراد والفئات وهي المشكلة الثانية المرتبطة بهذا الخيار، مما يولّد ويؤجج ويقوي النزعات الاقصائية للشباب وساكنة الاحياء من التفاوض الديمقراطي وعدّهم غرباء عن روح الديمقراطية التي تدمج الفئات المستقرة والعليا، اي الفئات التي يرتفع منسوب الثقة بينهم وبين الدّولة.

المشكلة الثالثة ذات طابع سياقي وعملي محليا، ذلك أن السياق التونسي الذي لا يزال يغالب صعوبات التحوّل

الديمقراطي لا يقبل إبعاد قطاعات واسعة من المجتمع تتسم بحركيتها ومطالبها عن عملية التغيير الديمقراطي وتبرير استبعادها بحجّة أنها فئات غير قابلة بمعقولية العملية الديمقراطية وبأنها " طبقات خطيرة "، أو" غير لائقة " مما يعني افراغ الديمقراطية من عمقها الاجتماعي وحصرها بين " المدمجين ". les Inclus . فسواء كان ذلك بسبب الكسل المعرفي أو الانحياز الأيديولوجي فإنه من الخطأ حصر دراسة الأحياء الشعبية وتعبيراتها الشبابية في مربع الجريمة والانحراف الذي يعالج أمنيا وقانونيا حتى وإن كانت فعلا مظاهر الانحراف والجريمة وقائع اجتماعية مثبتة إحصائيا فلا يمكن بناء عليها تعميم صورة " المنحرف " على كلّ شباب الأحياء، ولا الفصل بين السلوك الاجتماعي والحتميات الاجتماعية التي تنتجه.

عالم الاجتماع الارجنتيني الفرنسي "دنيس مركلان ". Denis Merklen ينتبه الى هذا الخطأ المعرفي والحيف الديمقراطي ويدافع عن مقاربة أعمق لتناول تجربة شباب الاحياء والطبقات الفقيرة لينتبه تحديدا الى ما يسميه أشكال التسييس الجديدة التي تبتكر وتتطور في هذه المجالات، فتفكّك الرابطة الاجتماعية التي كان يضمنها العمل المأجور ومكملاته المتمثلة في الحماية الاجتماعية من المرض و العجز فقدان العمل

وضـــمانات التقاعد التي تكفل للعامل مكانة ودور معترف بهما أنتجت واقعا جديدا للعلاقات الاجتماعية وأفرزت شـــرائح متعددة من المغتربين والمقصيين وفاقدي الحماية و بالتالي، صيغ وأطر مغايرة للفعل الاحتجاجي والسياسي .

"جميس سكوت " . James C Scott . من جهته ينتبه الى ما أسماه الفعل الشبه –سياسي . infra-politique الذي تتخذه الفئات التابعة والمبعدة في فضـــاءاتها الخاصـــة في مرحلة الاســتبداد والتضـيق على الحريات. ثم بالتحوّل الذي يحصـل عبر المرور من الخطاب المخفي والمقنع الي الخطاب المعلن عند التحرر من الخوف وزوال القيود التســلطية. فهذا التّحوّل السياسي سمح للأمرئين ولفاقدي الصوت من أن يكون لهم مكان.

ثم إنّ تراجع شبكات الحماية الاجتماعية لدولة الرّفاه كما عرفتها مرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية وغياب الاعتراف، ومن ثمة تفكك الأواصـر الاجتماعية مع عشـرية الثمانينات كما يحللّها بدقة " روبار كاســتال "[8] . Robert Castel، هو الذي أنتج شـرائح اجتماعية جديدة تعيش أوضـاعا هشّـة وغير مندمجة في

[8] Yasmine Siblot ، Marie Cartier ، Isabelle Coutant ، Olivier Masclet et Nicolas Renahy ; Sociologie des nouvelles classes populaires

المجتمعات الصناعية المابعد فوردية بالقدر الكافي بروابط عضوية قوية ودائمة.

"إيزبال كوتان " . Isabelle Coutant. إثر عمل ميداني جماعي تؤكد رفقة عدد من الباحثين هذا الاتجاه حين تعود الى تاريخ الدرّاسات السوسيولوجية وبداية التحوّل من علم اجتماع الطبقة العاملة المهيمن بعد الحرب العالمية الثانية في اوروبا ونضالاتها النقابية والسياسية الاشتراكية-الديمقراطية والشيوعية وحتى الأناركية الى علم اجتماع ما تسيمه الطبقات الشعبية، وهي تركيبة اجتماعية مختلطة تضم المجموعات الأكثر هشاشة وحرمان ومحدودي الدّخل والمعطلين عن العمل والنساء العاملات في أنشطة اقتصادية بأجور ضعيفة وصغار الحرفيين.

هكذا يتحولّ الحي (ويحل أحيانا محلّ المصنع ومقر العمل) في ضوء هذه المقاربات النظرية الى مجال جديد لبناء الهوية الجماعية للمبعدين والفقراء وبالتالي الي مجال جغرافي يضم ساكنة تعيش معا وتتقاسم نفس التجربة اليومية وتنسج داخلها رابطة اجتماعية ورمزية تضع خطّا فاصلا بين النحن " ابناء الحي و" الهم " الآخرون والخارجيون ". ضمن هذه الرابطة الاجتماعية المجالية المشكلة للهوية المستبعدة تتشكل أيضا هوية

جيليّة تهم الشـــباب لتصـــبح مجموعـات الأقران والأصـــدقـاء والجيران رابطة فاعلة تتصـدي للآثار السـلبية الناجمة عن تحلل وضـــعف الروابط الأخرى. فـالتحولات التي شـــهدتها المجتمعات المعاصـــرة عامة وفئات الشـــباب والاحياء والضـــواحي كانت مادة لإنتـاج معـرفي وعلـمي كثيـف في مجـال العلـوم الاجتمـاعيـة والأنثروبولوجيا الســياســية المعاصــرة منذ مدرســة شــيكاغو الأمريكية.

لقد شكلت الأحياء الشعبية في تونس فضاء سكنيا و رمزيا صـار الانتسـاب اليه والعيش فيه مصـدر انتماء وتماهي مع هوية جماعيـة، وتتحقّق من خلالـه مشـــاعر مركبّة من قبل التعلّق بـالحي كفضـــاء والانتماء الى متســـاكنيه كحاضـــنـة جماعيـة متضـامنة تسـتبطن شـعور الوصـم السـلبي الذي يسـلط عليها من الخارج لتعكســه في وجه مســتهدفيها، وهو ما تشــير اليه الباحثة التونســية " تراكي زناد " حين تقول " أن الفضـــاءات الحضـــرية الهامشية هي مجال حياة اجتماعية إبداعية، ولا يستقيم النظر إليها فقط كمجالات للخضـــوع بل يمكن فهمها أيضـــا بوصـــفها

مجال لتعبيرات احتجاجية عدة تنم عن مخزون رمزي وإبداعي لا يمكن التغاضي عنه"[9].

ما نلمسه بناء على ذلك ونحن نقارب السّلوك الاجتماعي للشباب داخل الاحياء الشعبية وذلك منذ الثورة هو التّحول من صورة " الحيطيست " . *Les Hittistes* . التي ترمز الى السّلبية والانكماش وتجنب الحركة الى صورة الفعل الحركي الجماعي الاحتجاجي. [10]

اخترنا ان ننطلق في هذه الورقة من الدّعوة الى التظاهر والتجمع امام مقر جامعة كرة القدم التي أطلقها الأحباء الشبان للنادي الافريقي والتي تلتها سلسلة التحركات الليلية في الاحياء.

---

[9] Traki Bouchrarar Zannad، la mémoire du Vecu pour une sociologie du vécu Serec éditions 2006

[10] Amin Alla avant on tenait les murs mainternant on tiens le quartiers « Politique africaine » 2011/1 N° 121 | pages 53 à 67

أنظر أيضا عادل بالحاج رحومة الشبان الحيطيست يعمرون الفراغ الاجتماعي " المجتمع الموازي بين الهامشية و الوظيفية تنسيق وتقديم الكراي القسنطيني تونس 2011 جامعة منوبة " التسمية في أصلها الجزائري مضمنة تضمينا ساخرا يجمع بين الوصف و الوصم الاجتماعي إنهم أولئك الذين يمضون ساعات طويلة من النهار يسندون ظهورهم للحائط ويحدقون في اللاّشيئ "

بداية لنذكر أنّ رياضـــة كرة القدم في التاريخ الاجتماعي لتونس المعاصـــرة لم تنفصـــل عن مدارات الصـــراع والتوظيف السـياسـي، فشـريط سـامي التليلي الوثائقي "عالبار" يسـتعرض الخيوط الخفية و المعلنة بين شـــغف الناس بالمنتخب الوطني ومغـامرة كـأس العـالم و إدارة اهم مواجهـة اجتمـاعيـة بعـد الاســـتقلال بين دولة بورقيبة و الاتحاد العام التونســـي للشـــغل سنة 1978 وبعد ثلاث عقود و قبل ثورة 2011 ، تحوّلت مدرجات ملاعب كرة القدم الى فضـاء للحشـد الشـبابي تعبيرا عن الغضـب والنزوع للمواجهـة مع قوات الأمن مع ظهور وتوالـد مجموعـات الالتراس المنظمة.[11]

بعد الثورة، تواصلت أنشطة هذه المجموعات، وقد عرفت منعرجا مع حملة " #تعلم_عوم "التي انطلقت بعد موت الشـــاب عمر العبيـدي غرقـا في واد برادس بعـد ان أجبره أعوان الأمن اللذين كانوا يلاحقونه الى القاء نفســـه رغم تأكيده انه لا يجيد السّـــباحـة، اذ تحوّلت حـادثـة موت عمر منذ 2018 الى عنوان جامع لكلّ الشباب الغاضب والرّافض لعنف الدّولة والافلات من

[11] شيماء بن رجب الالتراس واشكال التنظم وابعاده السياسية والاجتماعية
https://ftdes.net/ar/the-ultras-groups-in-tunisia/

العقاب، وهي اليوم التكثيف الأبرز للعلاقة المتوترة بين البوليس وشباب الأحياء الشعبية [12]

دعوة شـــباب النادي الافريقي للتظاهر امام مقر جامعة كرة القدم يوم 9 جانفي للمطالبة بالتســـيير الشـــفّاف لجمعيتهم وتواتر صـــور الشـــباب الذين تم إيقافهم بشـــكل مهين ثم حادثة الرّاعي الذي تعرض للإهانة أمام معتمدية ســـليانة من قبل عون أمن، يوم 15 جانفي 2021 كانت شـــرارة قادحة أخري لخروج موجات غضـــب شـــبابية في معظم الأحياء الشـــعبية للعاصـــمة والمدن الدّاخلية، وقد أدت الاعتداءات الأمنية الى جرح الشـــاب هيكل الراشـــدي بســـبيطلة قبل أن يفارق الحياة بعد أيام، واســـتمرت المواجهات الليلية في الاحياء الشـــعبية بين الشـــباب الغاضـــب والمحتقن وقوات الامن، وقد مكنت بعض المعطيات والملاحظات المتوفرة والمحادثات اللاّشـــكلية التي أجريناها مع بعض الفاعلين من إبراز ثلاث اســـتنتاجات: أولها دور مجموعات الالتراس في هذه المواجهات ومشـاركة مراهقين بين 15 و 18 سـنة

[12] سفيان جاب الله الراب ، السلفبة العلمية و الالتراس ، حين تحكي الحومة الشعبية و تعلم عوم تعلم اجري دليلك للعيش في تونس اليوم و الزطلة في عراجينها رواية أخري عن السلطة في تونس ضمن مؤلف جماعي عراجين الغضب كتابات سياسية مجدّدة كلمات عابرة نشاز 2020

في هذه المصادمات، أي من كانوا أطفالا عشية الثورة ولم يعرفوا سوي النخب الحاكمة الحالية، وتواصل تحرك الشرائح العمرية الشبابية الأخري 18 -25 و 25 -35، وهو ما يعني أننا من الناحية الديمغرافية أمام وضع متحوّل سمح بدخول دفعة جديدة من الشباب المحتج واتساع الهوة بينه وبين الأجيال السابقة، خاصة تلك التي ترهّلت فكريا وعجزت عن مواكبة التحوّلات. ثاني هذه الاستنتاجات هي حدةّ القطيعة بين مؤسسات الدوّلة وهذه الفئة الاجتماعية وخاصة بين المؤسستين الأمنية والبرلمانية، وثالثا نجاح هذا الخروج الاحتجاجي للشباب في طرح المسألة الاجتماعية في وجهها المجالي والحضري داخل الفضاء العمومي دفعا بها خطوة الي الامام نحو الفضاء السياسي الديمقراطي.

رسم بياني - 3 – حجم التحركات الاحتجاجية لشهري جانفي وفيفري

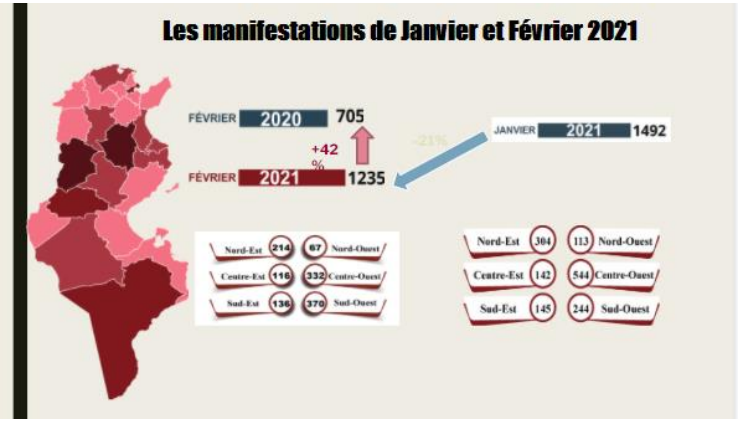

رسم بياني 4 أشكال ووسائل الاحتجاج

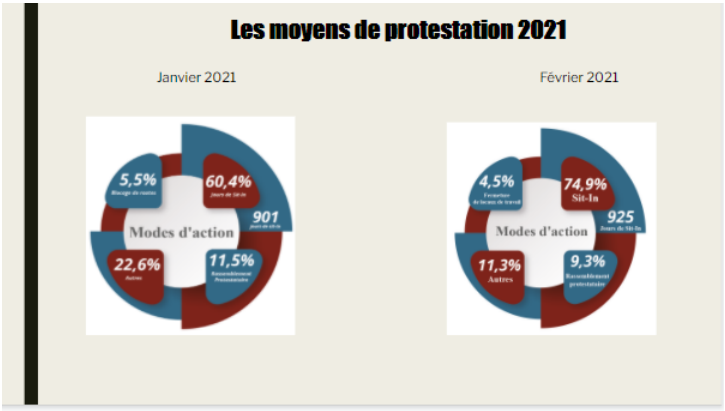

المصدر المرصد الاجتماعي للمنتدى تصميم نجلاء بين عرفة

نرصد من خلال الجدولين تواصل نسق التحركات الاحتجاجية وكذلك تواصل التجديد في الاشكال الاحتجاجية والوسائل التعبوية مما يؤكّد قيمة هذه الممارسات الاحتجاجية في نحت صور متعدّدة للمقاومة المدنية. ويجعل السؤال حول أية علاقة ممكنة بين دمقرطة الاحتجاج ودمقرطة المؤسسات؟ سؤالا مشروعا وهو يهم المحتجين والمقصيين قبل غيرهم لأنه يطرح مسألة حضورهم السياسي في المدينة والحياة العامة.

هذا التعبير الاحتجاجي الأخير للشباب الذي تكلم بطريقته - فالاحتجاج في جوهره خطاب موّجه – ليس سوي حلقة من هذا المسار إذ وظّف عدة وسائل ووسائط وهو يستمد طاقته الصاّعدة من الاحساس بغياب العدالة لديه إذ يعبر في دراسة

جماعية أجريناها سابقا مع عينة شملت 800 شاب من أربعة احياء في تونس العاصمة [13] 80،4٪ منهم أن الدولة لا تساعد الفقراء وان 81،6 ٪ يؤمنون أنها تفضّل الأغنياء و82،4٪ يرون أن القوانين المجرّدة لا تطبق بنفس الطريقة على الجميع بل بحيف يجعل الضعفاء ضحايا [14]

حسب دراسة" لم الشمل " ينظر الشباب الي الفساد على أنه ظاهرة منتشرة ويعتقد 87٪ منهم أن الفساد والرّشوة والمحسوبية منتشرة في منطقتهم وتأكّد هذه الدراسة اعتقاد الشباب بأنه كلما ازداد الفقر ازداد المعاناة من الفساد [15]

التوزيع الجغرافي للفقر والتهميش داخل المجال الحضري التونسي يرسم لنا من جهة أخري علامات الفصل بين المجالات المندمجة والمجالات المبعدة والمعزولة وهو فصل استفحل تحت تأثير اتجاهات العولمة الليبرالية والخيارات التي اتّبعتها الدولة منذ

[13] البعد الاجتماعي في فهم التطرف العنيف دراسة تنسيق ريم بن اسماعيل " منشورات المنتدي التونسي للحقوق الاقتصادية و الاجتماعية 2020

[14] https://ftdes.net/ar/etude-pensee-sociale-et-resonances-avec-lextremisme/

[15] مصدر سابق

أواخر الثمانينات ويطرح قضـية التفاوت التنموي لا فقط بين الجهات والاقاليم بل داخل المدن نفسها.

فبحسـب تعبير الجغرافيّة الأمريكية سـاسـكيا سـاسـان. Saskia Sassen. أنتجت العولمة الرأسـمالية المفتوحة منافسـة بين المدن الكبرى، ومن ثمة أنشـطة اقتصـادية متمركزة في مدن عصـرية ومهن وأعمال ووظائف مباشـرة وغير مباشـرة لشـريحة مهنية قادرة على الاندماج، وأنتجت في المقابل اشـكال جديدة من اللامسـاواة داخل الفضـاء الحضـري نفسـه [16]عزل وطوّق غير المنـدمجين وأحكم آليـات مراقبتهم وتقفي خطـاهم وتركهم في "الخارج" أي خارج ما يسـمياه بولتونسـكي وشـيابللو[17] . Luc chiapello Boltanski et Eve . "مدينة المشـاريع" التي تقاس فيها قيمة ومكانة الأفراد بحركيّتهم ومرونتهم وقابليتهم للنشـاط الذي تفرزه الرّوح الجديدة للرأسـمالية وتثمنه. للعولمة اذن سـعداؤها وهم الأقلية وأشـقياؤها ومنبوذيها وهم الأغلبية.

[16] Voir sociologie des inégalités Olivier Galland et Yannik Lemel Armon colin pp 224 -227 ، 2018

[17] Boltoanski et Chiapello le nouvel esprit du capitalisme

آثار مثل هذا الاتجاه المعولم بدأت تتجلي تمظهراته العمرانية في تونس من خلال الفوارق الواضحة بين الأحياء والتجمعات العمرانية الجديدة الرّاقية والمندمجة في العولمة والانشطة الاقتصادية المالية والخدماتية والتي تتركز فيها الخدمات الصحية الخاصة من عيادات طبية ومصحات متعددة الاختصاصات ومرافق الترفيه ومراكز التسوق الضخمة والشركات والمؤسسات الخاصة (البحيرة، المركز العمراني الشمالي، حدائق قرطاج في العاصمة... وقس على ذلك في اكبر المدن)، والأحياء الفقيرة والطرفية حيث البناء الفوضوي والسكن الاجتماعي ونقص الخدمات وتردي البنية التحتية وتعقد العلاقات الاجتماعية حيث أصبحت حياة الناس البسطاء، كما يسميهم عالم الاجتماع الإيراني آصف بيات، صراعا دائما ومخاتلة مستمرة لسطلة الدولة والادارة مما خلق داخل الاحياء الشعبية نفسها واقعا سوسيولوجيا مركّبا يتعايش فيه المعدمون والفئات الهشّة وشرائح وسطى وتنظّمه منظومات رمزية ولغوية وعلائقية متداخلة، فالحي الشعبي فضاء جغرافي وسكني وأنثروبولوجي مركب الدّلالات و ليس بنية صمّاء حيث "يشكّل الشارع حيزا اجتماعيا ومكانيا ساكنا ومتحركا، ومكانا للمرئي والمسموع، وهو يمثل كيانا معقدا تتشكّل فيه المشاعر والآراء التي

يتم التعبير عنها بطرق فريدة "[18] بهذا نفهم كيف حوّل سكان الأحياء الشعبية والذين أريد طردهم من الفضاء العام البرجوازي المهيكل والاقصائي- كما يريده هبرماس وتنتقده نانسي فريزر . Nancy Fraser - الشارع الى حلبة صراع ومجال للتجلي والمرئية وهو ما يؤكّد أنه صار مفتاحا ضروريا لفهم الحياة الاجتماعية وتوتّراتها في المجال الحضري التونسي .

فطرق العيش وكلفة الاستهلاك وانعدام وسائل النقل العمومي تجعل من تلك الاحياء الغنية شبه مغلقة فعلية على شباب الاحياء الشعبية ومفتوحة فقط عبر الوسائط الافتراضية و الصورة، بل هم مطاردون من قبل الأمن ان حصل وارتادوها بسبب لباسهم وملامحهم وعناوين إقامتهم المثبتة على بطاقات هوياتهم، وهي ظاهرة نبّه اليها مرشد الشابي منذ أواخر الثمانينات حين بين حركة التوّسع العمراني التي فصلت بين الفئات الضعيفة والفئات المتوسطة والعليا أي بتعبير جاك دونزيلو .

[18] أصف بيات الحياة سياسة كيف يغير بسطاء الناس الشرق الاوسط ترجمة أحمد زيدان المركز القومي للترجمة القاهرة " 2014

Jaques Danzelot . الفوراق الطبقية التي جسّمت ظهور ثلاث سرعات داخل المدينة [19] .

زيغموند بومان. Zygmunt Bauman . انتبه من جهته بدقة لهذه السمة الجديدة التي افرزتها الحداثة السائلة في تنظيم المجال الحضري وفق معايير النجاعة والمردودية التي يطلبها الرأسمال المعولم، والتي حوّلت المدن الى ساحات للمعارك الاجتماعية والرّمزية الجديدة بين من يتمترسون داخل بناءات

[19] Selon Jacques Donzelot، dans son ouvrage Quand la ville se défait، Quelle politique face à la crise des
Banlieues ?، Paris، Seuil، 2006. Les lignes de partage du territoire se font dans la société française comme suit - Les minorités ethniques et les pauvres dans les zones de relégation.
- Les petites classes moyennes dans les communes rurales et périphériques (périurbaine).
- Les centres gentrifiés investis par une population cultivée، financièrement aisée، et soucieuse des avantages du positionnement géographique au centre pour l'emploi، les loisirs et l'éducation des enfants.

محمية خشـية الغرباء [20] ومن يشـعرون بالإقصـاء. سـمة هذا الانفصـال المجالي أنه تحوّل الي تباعد ثقافي ورمزي بهم طرق العيش والتمثّلات والمتخيلات الجماعية، و هنا يطفو سؤال حري بالاهتمام يطرحه عالم الاجتماع التونسي فتحي الرقيق: هل انحسـر الاسـتهلاك المنوّع من المنتجات والخدمات في الطبقة المهيمنة وحواشـيها؟ هل غدا المتنوّع حكرا على البرجوازية وبات المنّمط (المملّ والمقرف) قدر غيرها من الطبقات؟

إجابة عن هذا السـؤال نقول ليسـت الجدران (الحدود) داخل المدن مادية بل هي أيضا وخاصّة رمزية وسلوكية، تلك هي الحقيقة الجديدة المثبتة اليوم والتي على اساسها نفهم العلاقات الطبقية والاجتماعية ونقرأ عبرها دوافع وتعبيرات ما يشـعر به أولاد الحوم من حرمان نسبي. وبالتالي الدوافع التي تحرّك مشاعر الغضـب والاحتجاج لديهم و تعلن اسـتحالة تحويل الفضـاء

[20] C’est dans la ville que sont définis les champs de bataille، que sont dessinées les lignes de front. Les tranchées fortifiées (abords infranchissables) et les bunkers (bâtiments massifs étroitement gardés) qui visaient à tenir les inconnus à l'écart et à leur barrer le passage sont en train de devenir l'un des aspects les plus visibles des villes contemporaines

الاجتماعي الى فضـــاء أســـيل في ضـــلّ احتداد الفوارق وغياب العدالة .

لنذكر هنا أن حركة ظهور وتشـــكل الاحياء الهامشـــية والطرفية تاريخيا كانت موضوع اهتمام علم الاجتماع والدرّاسات الحضـــرية والجغرافية الحضـــرية في تونس منذ الخمســـينات مع بول ســـباغ . Paul Seabag ثم مع فرج ســـطمبولي وحافظ ســـتهم من خلال تناوله لأزمة الريف وحركة الهجرة الداخلية من الأرياف الى المدن وهي الـدرّاســـات التي تجعلنا نفهم الـدور البـارز لهـذه الفئات الهشـة في انتفاضـة الخبز سـنة 1984، وهو تحول بارز في دور شـــباب الاحياء في الفضـــاء العام بعد دور الشـــباب الجامعي والحركة العمالية ونســـتطيع ان نقدم اليوم هنا فرضـــية للبحث حول تشـــكل هـذا الفـاعـل الاجتمـاعي المحتج عبر تراكمـات على مدى عقود حتى جعلت منه فضـــاءا تصـــادي رنينه مع الجهات الدّاخلية منذ الأيام الأولي للثورة لاعتبارات أنتروبولوجية وجيلية ســـرّعتها وســـائل التواصـــل الاجتماعي الحديثة كأدوات نقل للأحداث والوقائع وكذلك كأدوات للتعبئة.

التعبير عن هـذه الهويـة الجمـاعيـة " أولاد الحوم " كمـا الانتماء لمجموعات الالتراس وتعبيرات موسيقى الرّاب والغرافيتي طيلة العشـرة سـنوات المنقضـية بعد الثورة هو ضـرب من البحث

عن حلول مغايرة لمغالبة مجتمع الأفراد كمجتمع ذوات مستقلة ومتنافسة وفق منطق اقتصاد السوق، بل هي في تنافس غير متكافئ بين من يملك رؤوس- المال كلّها او بعضها (المادية والاجتماعية والرمزية) للتفوق ومع من يفتقدها، وهي كذلك اعلان شكل من التنظيم العفوي والتلقائي والعاطفي اكثر فاعلية من اشكال التنظيم التقليدية المدنيّة كالحزب والنقابة والجمعية وكذلك اشكال الترابط الاجتماعي الدينية حول المسجد والحلقات الدينية. هي مقولة توحّد ولكنها لا تماهي ولا تطمس الاختلافات وحتى الفوارق الدآخلية بقدر ما ترسم خطوط التباعد مع الخارج " الغير " .

من المؤشرات الأخرى التي تدعم هذا الاتجاه الجديد في الاحياء الشعبية هي إجابة 64،7 ٪ من الشباب أن أهم شعور

بالانتماء هو لمجموعة الاصـــدقاء والأقران[21] ثم الحي بنســـبة 53،9٪ قبل الانتماء للبلاد أو الوطن 45 ٪ [22]

هذا يجعلنا نصف العاصمة التونسية اليوم اقتباسا من ميشل هنري . Michel Henri . في كتابه المرجعي "الحق في المدينة " بانها صارت عرضة لأزمة وجودية حقيقية حيث القديم لم يعد يمكنه البقاء والجديد بشـــع وبلا روح، وهو اقتباس يذهب بنا لما أبعد من ذلك مع" الجغرافيا الرّاديكالية " لديفيد هرفي. David

[21] ريم بن اسماعيل مصدر سابق

19 Voici ce qu'écrit Teresa Caldeira au sujet de São Paulo، deuxième ville du Brésil، en pleine expansion:
São Paulo est aujourd'hui une ville de murs. Des barrières physiques ont été construites partout، autour des maisons، des immeubles، des parcs، des places، des bureaux et des écoles […]. Une nouvelle esthétique sécuritaire gouverne tous les types de constructions et impose une nouvelle logique de surveillance et de distance Et c'est dans ces lieux que se déroulent la gestation et l'incubation des besoins et désirs humains، c'est là qu'ils se développent dans l'espoir d'être satisfaits، qu'ils courent le risque de la frustration et، de fait، c'est là qu'ils sont le plus souvent étouffés

[22] https://ftdes.net/ar/etude-pensee-sociale-et-resonances-avec-lextremisme/

Harvey . حين يحيلنا الي المواطنة المتمردة التي أنتجتها أشـــكال الحيف والاقصـاء الاجتماعي في المدن المعولمة والتي تطرح بشـكل راديكالي حق العيش في المجال الحضـــري وتوفير مقومات الحياة لمن حرموا منها، ليصبح النضال من أجل الحق في المدينة الدّامجة هو الإطار الجامع لشـــباب الاحياء الشـــعبية وهو المجال الذي سـتتشـكل حوله ومن خلاله ومن أجله ودفاعا عنه اسـتراتيجيات المقاومة.[23]

فتوفير المرافق العامة، والحق في الشـــغل والترفيه والمتعة والحركة من جهة، ورفض الفسـاد والمحسـوبية وعنف البوليس، غدت تدريجيا محاور تعبئة ومقاومة جماعية ومتضـــامنة بين شباب الاحياء الشعبية، وفي هذا الخروج الاحتجاجي للتصادم مع أجهزة الدولة ممثلة في الامن، رمز الظلم في تمثلّات الشـــباب، رسـالة سـياسـية سـعت التصـريحات الحكومية وبعض وسـائل الاعلام الي تجاهلها بالإشـارة الى احداث الشـغب والعنف والنهب التي تناقلتها جلّ وسائل الاعلام وركّزت عليها.

جوهر هذه الرسالة هو الخروج من منطقة اللّامرئية والبحث عن موقع في المدينة والحق في التمّتع بالحقوق وهو قلب للمعيارية السائدة وخلق لمعيارية مغايرة تبني الهوية المشتركة وتخوض عبرها المواجهة مع من تعدهم خصومها وتتحدي ما تعده احتقارا واستصغارا واهانة. فالنواة الصلبة للهوية الجماعية لأولاد الحوم هذه المرة لم تكن دينية بل اجتماعية ولا نمطية.

إن الضيم يتحوّل في المجال الاجتماعي الذي تحرّر بعد الثّورة الى محرّك لطاقات شباب الأحياء طلبا أو انتزاعا "للاعتراف " اي طلبا للكرامة، هنا نستحضر مقولة الصراع من أجل الاعتراف التي يقترحها أكسيل هونث . Axel Honnteh . لفهم جدلية الصراع الاجتماعي اليوم وتفصيلها الى ثلاثة نماذج لتحقيق الذّات هي محلّ صراع داخل العلاقات الاجتماعيّة المعاصرة :

المستوى الأوّل، هو الحبّ الذي يجمع فردا بمجموعة ما، ففقط هذه القوّة العاطفية التي تربطه بمجموعته هي التي تحقّق له الثّقة في النّفس وبدونها لن يتمكن من المشاركة في الحياة العامّة وهو الشعور الذي يحرر المغتربين من اغترابهم كما نجد ذلك عند ماركس في مخطوطات 1844 غير أن هوية المغترب لم

تعد تختزل في البروليتاري والذّات الجماعية لم تعد الطبقة بل صار للمغتربين وجوها عدّة.

المستوى الثاني، قانوني–سياسي. فالفرد، باعتباره مستقلا له حقوق وواجبات، تدرك أفعاله على أنّها تعبيرا عن استقلاليته من هنا يكون الارتباط ضروريّا بين الاعتراف القانوني واحترام الذّات. لكن هذا يظل غير كاف، فإقامة علاقة دائمة مع النّفس تشترط توفّر احترام اجتماعي يسمح للنّاس بالتعاطي الإيجابي مع قدراتهم ومواهبهم أو مع بعض القيم المستلهمة من هويّاتهم الثّقافيّة ومن ثقافتهم الفرعية.

المستوى الثالث يتعلق بالتقدير الاجتماعي الذي يرتبط بتقدير الذّات، أو ما نسمّيه بالإحساس بالقيمة فلم يعد ممكنا أن نفهم دوافع الإحساس بالغبن والاحتقار والإقصاء والازدراء، من جهة، وأدوات التّحرّر والانعتاق، من جهة أخرى، إذا اكتفينا بالرؤية الاقتصادوية للتّناقض بين رأس المال والعمل والاستغلال الطّبقي. فالأفراد يشعرون بالضّيم، وبحيف العلاقات الاجتماعيّة، لا فقط باعتبارهم عمّالا أو أجراء، بل باعتبارهم ذواتا لهم رغبات غير مشبعة، ولهم ذاكرة، وهوية، وكرامة ويرفضون ان يعاملون كأشياء (*غبار من البشر*) .

الصـــراع وليس التوافق الفوقي اذن هو الذي يميز المرحلة الحالية من التحوّل الديمقراطي التونســي وهو صــراع محوره المركزي اجتماعي وطبقي وتعبيراته رمزية ومادية وهو ليس صراعا ثقافيا حول أســئلة الحداثة والمحافظة لا يأخذ بعين الاعتبار المطالب الحيوية للفئات الضعيفة.

هكذا وقفنا عند وظيفية مقولة " اولاد الحوم " كهوية جماعية راسمة للحدود في تتبعنا لتحركات جانفي وفيفري 2021 وحاولنا، دون توســع وتفصــيل لا تســمح به حدود هذه الورقة، ربطها بتحولات المجتمع التونســي وتأثيرات العولمة الليبرالية عليه منذ ثلاث عقود وتنزيل رؤيتنا ضــمن الاهتمام بتشــكّل الفاعلين الجدد و تجدد فضاءات وأشكال التمرد والمقاومة لديهم .

الحق في المدينة: أولاد الحوم وشبـــاب المجتمع المدني معـــا: 'حاصر حصارك لا مفر فأنت الآن حرّ"

يتردد على لســان الجميع الحديث عن الدور المتنامي للمجتمع المدني في تونس، وهو تثمين يراد به التشديد على اهمية المجتمع الحديث مقابل المجتمع التقليدي في نظر عدد من الباحثين، ويراد به أيضــا التأكيد على أهمية هذا المجتمع المدني المســتقل للحدّ من تسـلّط الدّولة. إحصــائيات مركز إفادة للجمعيات تؤكد هذه الطفرة الكمية لجمعيات ومنظمات المجتمع المدني

رسم بياني -4-توزيع نسبة جمعيات المجتمع المدني على ولايات الجمهورية

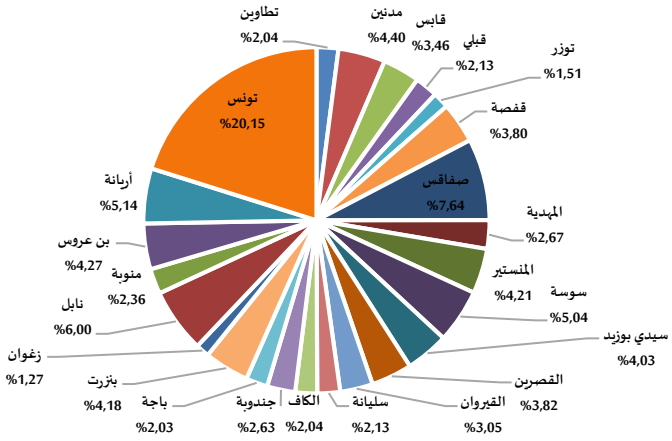

المصدر احصائيات افادة ديسمبر 2020

رسم بياني -5 - توزيع الجمعيات بحسب مجالات النشاط

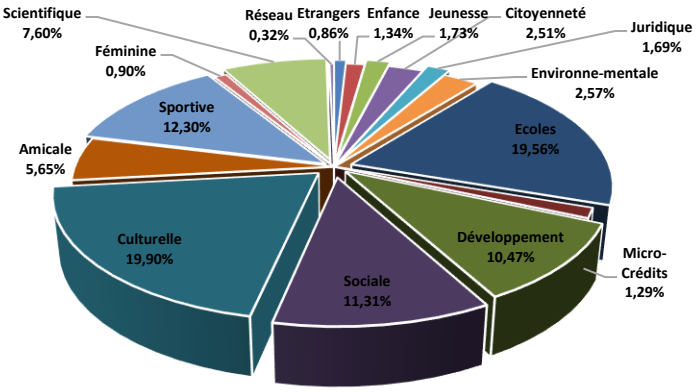

المصدر احصائيات افادة ديسمبر 2020

جلي إذن التّطور الحاصـــل في تونس في حجم ومجالات عمل جمعيآت المجتمع المدني. وإذ تبقي هذه الأرقام غير كافية لتشـــريح دقيق لواقع العمل الجمعياتي، اذ هي تتعلق بالوجود القانوني للجمعيات وليس بالوجود الفعلي لها كمؤســـســـات لها برامج عمل، غير أن اللافت للانتباه بناء على هذه المعطيات هو الحيف بين الجهات في عدد الجمعيات، إذ تبقي تونس الكبري في المرتبة الأولي ب 32٪ مع تفوق واضح لولاية تونس ب 25٪ مقارنة بمنوبة ب 2٪ في حين تبقي 7 ولايات في أسفل السلم بين 1٪ و 4٪ (وهي زغوان، بنزرت، جندوبة، باجة، الكاف سليانة، القصرين، سيدي بوزيد،) يكشف هذه الجدول اللاتوازن الجهوي لانتشار

جمعيات المجتمع المدني و الطابع المركزي والحضـري الغالب عليه.

الملاحظة الثانية تخصّ مجالات العمل حيث تأتي الجمعيات الثقافية في المرتبة الأولى ب ،70 19٪ ثم المدارس ب 19،37 ٪ ولا نجد هنا تفصيلا حول طبيعة عمل هذه الجمعيات الثقافية في حين لا تمثل جمعيات الشباب سوي 1،71٪ ولا تتعدى نسبة الجمعيات النسوية 0،89 ٪.

فهم علاقة الشباب بالمجتمع المدني فقط من هذه الزاوية الكمية والاحصائية يؤدي الى استخلاص معممّ و متسرّع مفاده ضعف اهتمام الشباب بالشأن العام ونفورهم من العمل المدني والسياسي أو الى ربط النضالية بالحجم، فالنسوية التونسية المستقلة مثلا نشأت ولا تزال تتطور رغم ضعفها الكمي بفضل نضاليتها . فحقيقة الواقع الاجتماعي وتجربة المعيش اليومي للشباب تحمل دلالات أخري وتسمح بتحليل مغاير لهذه العلاقة بين الشباب والمجال المدني والسياسي فكيف نفهم إذن هذه العلاقة في ضل التحولات الاجتماعية المعاصرة التي نعيشها وما هي رهانات التقارب الذي حصل في تحركات بداية السنة بين شباب الأحياء الشعبية وشباب ونشطاء وناشطات المجتمع المدني المنظم؟

هناك اتفاق يكاد يكون شـــاملا اليوم بين الباحثين حول دراســة حركية المجتمع التونسـي قبل 2011 وبعده، اسـتنادا الى العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني من جهة والى العلاقة بين هذه المنظمات والمجتمع الفعلي نفســه، وهو ما يمثل تحديا جوهريا لتفـادي الطـابع النخبوي للحركـة المـدنيـة وتوســيع قـاعـدتهـا الاجتماعية [24].

على المستوى النظري، لم يعد مفهوم المجتمع المدني يحيل إلى التعبير الجمـاعي للانخراط الطوعي للأفراد بمـا هم أفراد متحررون من كلّ روابط جماعية تقليدية، بل أصــبح هذا الأخير حاضــنة متطورة للنضــال من أجل مطالب جماعية أيضــا، فالهويات الجماعية، ســواء كانت ثقافية وغير ثقافية، صــارت جزءا من محـاور نضـــال المجتمع في تونس، كمـا في عـدة دول العالم، ولا يزال الجدل النظري حادّا وخلافيا حول تطور مفهوم المجتمع المدني ووظائفه.

تونســيا وبـالعودة الي نص مرجعي لعبـد القـادر الزّغـل ولمســاهمات الطاهر لبيب، نفهم أنّ التّقبل التونســي لمفهوم

[24] الحبيب مرسيط دور منظمات المجتمع المدني في الثورة التونسية ضمن مؤلف جماعي حركية المجتمع التونسي في عشرية الثورة تقديم مولدي القسومي دار محمد على 2020

المجتمع المدني اقترن تاريخيا بالإنفتاح السياسي وباكتشاف الغرامشية لدي أجزاء عامة من النخب الديمقراطية واليسارية، أي اقترن بالوعي بمركزية المعركة الثقافية والتحتية في مسار التغيير الديمقراطي، وهو ما يتأكد اليوم من خلال دوره في نشر قيم وثقافة الديمقراطية والعدالة على نطاق أوسع خاصة أمام قوة الحضور الثقافي للجماعات الاسلامية.

وعلى المستوي العملي الذي تنقله الوقائع، نرصد بدايات موفقة لتقاطع بين المجتمع المدني "القائم" والحركات الاحتجاجية للفئات المهمشة مما غيّر الصورة النمطية الفاصلة بين فضاءات فعل النخب والمنتمين للفئات الوسطى والبرجوازية الصغرى (مدرسون، جامعيون، أطباء، محامون، صحفيون، فنانون ...) وفئات أخرى مقصيّة، وهو تقاطع عزز فرص شتات "المهيمن عليهم" في معركة التحرر من الهيمنة.

من هنا بدأ المجتمع المدني في الاضطلاع بمهام محولّ سياسي للحركات الاجتماعية الجديدة، وبالتالي تمكين تعبيرات المقصيين واللاّمرئيين من مساحة في الفضاء العمومي كفضاء للمواجهة والتداول جعله ضمن القوى التي تخوض معركة مواقع

طويلة لفرض محاور العدالة الاجتماعية والتنمية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية وغياب العدالة عامة[25] .

هذا التقاطع بين المجتمع المدني بكل مكوناته، من جمعيات ومنظمات مستقلة تاريخية ومنظمات وجمعيات جديدة وفروع لمنظمات دولية و"مجتمع الهامش" بفاعليه ومطالبه وتحركاته، أفرز تحوّلات ترتبط بإنتاج معرفة جديدة ومحيّنة بالواقع عبر بحوث موجهة ودراسات قطاعية وجهوية ومحلية، ساهم فيها جامعيون ومهنيون وباحثون شبان، وبتنظيم المناصرة القانونية والإعلامية للمطالب وللمحتجين والنشطاء، وساهم كذلك في تقوية القدرة التعبوية واللوجستية للفاعلين الميدانيين وتمكينهم

[25] نذكر هنا عديد المبادرات التي سارعت بإعلان تضامنها و انحيازها لتحركات الشباب ببيان جمعيات المجتمع المدني بتاريخ 20 جانفي https://ftdes.net/ar/une-reponse-repressive-a-une-crise-politico-economique/
تشكيل ائتلاف التونسيين بالهجرة للدفاع عن شباب الحركة الاحتجاجية وحملة التضامن الدّولية والرسالة الموّجهة لرئيس الجمهورية قيس سعيّد .https://ar.lemaghreb
رسالة المنتدى للمفوض الأمي https://ftdes.net/ar/lettre-ouverte-au-rapporteur-special-sur-les-droits-a-la-liberte-de-reunion-pacifique-et-a-la-liberte-dassociation-la-rapporteuse-speciale-des-nations-unies-sur-la-liberte-dopinion-et-dexpress/

من موارد مادية لا تتوفر لهم ذاتيا ، كما دفع نحو بناء الاقتراحات وصياغة البدائل...

ثم أن قيمة هذه الممارسة التفاعلية المتحققة في المكان والزمان وعبر تجارب ميكروسوسيولوجية ما انفكت تقوي فاعلية مقاومات الهامش ومرئيته في ظل موازين قوى سياسية ودعائية مختلّة.

نحن بهذا التشخيص للديناميكية المركبة -ميدانية، رمزية، إعلامية - بين منظمات وجمعيات من المجتمع المدني وتعبيرات شباب الأحياء الشعبية وفاعليها الجدد، والتي بدأت بوضوح في العشرية الأخيرة لحكم بن علي وتسارعت في مناخ الانفتاح الديمقراطي، نفتح نافذة لفهم تطورات الفعل الاحتجاجي من خلال امكانات التفاعل بين ما يتم داخل المؤسسات وما يتم خارجها، سواء في مواجهة أو في تفاعل معها .

نقف اليوم مع تحركات جانفي فيفري 2021على لحظة تغيير تفاعلي في الأدوار وفي المواقف بين شباب الاحياء الشعبية وشباب المجتمع المدني وبشكل أعم، مجمل تنظيمات وتعبيرات المجتمع المدني ذات الخلفية الديمقراطية والتقدمية المؤمنة بقيم الحرية والعدالة والمساواة، وهو فرز ذو أهمية تاريخية من

عدةّ جوانب. نقف على أهمها من خلال عدد من الشـهادات دون توسـع وتحليل معمق لا تسـمح بهما هذه الورقة، غير أنه يبقي موضـوع ذو أهميـة قصـوى من المهم أن تعود اليـه التحليلات الاجتماعية والسياسية.

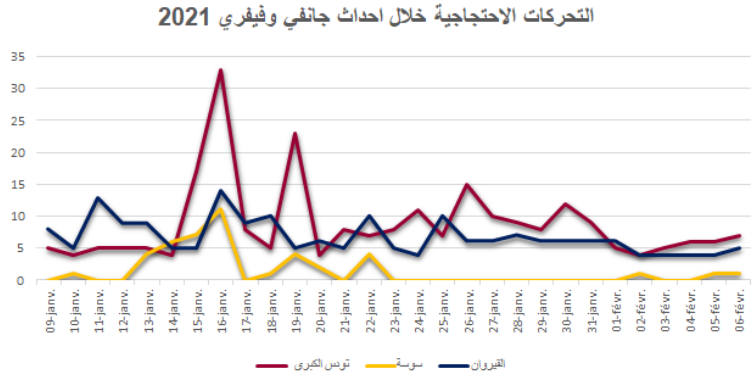

المصدر المرصد الاجتماعي للمنتدي تصميم نجلاء بن عرفة

اخترنا تناول نسق التحركات من خلال ثلاث جهات لتأكيد طباعها الحضري ولتأكيد خطوط الصراع الذي تشق هذا الفضاء الحضري نفسه والمختلفة عن خطّ الانكسار الآخر بين المناطق الساحلية والجهات الدّاخلية وفق مؤشرات التنمية الجهوية والمحلية.

ننطلق بداية من متابعة الرّابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان لحملة الايقافات والمحاكمات الاخيرة والتي

كشفت أنّ عدد الموقوفين حسب احصائيات تقريبية متداولة بلغ 1680، وهو رقم ارتفع إلى 1960 بعد أيام كما عرفت حملات الاعتقال ذروتها أيّام 18 جانفي حيث سجلنا 632 ايقاف بالعاصمة وتونس الكبري وحدها من ابناء حي التضامن الملاسين وفوشانة والسيجومي وطبربة، ثم يوم 20 جانفي حيث سجلنا 200 إيقافا، معظمهم قصّر، ويوم 21 جانفي سجّلنا ايقاف 242 شاب.

وإلى جانب الرقم المرتفع لعدد الموقفين بشكل غير مسبوق منذ 2011، أشارت الرّابطة وعديد المنظمات الحقوقية الأخرى الى توظيف ترسانة من القوانين البالية التي لم تعد تتلاءم مع مبادئ الدستور والمدوّنة الدّولية لحقوق الانسان[26] . لقد خيّمت أطياف الدوّلة الأمنية وارتفعت مخاوف العودة الي الماضي خاصة بعد مسيرة النقابات الأمنية بصفاقس وما حملته من رسائل تهديد صريحة للحقوقيين والسياسيين.

أميمة جبنون عن الهيئة المديرة للرّابطة، وهي من الجيل الجديد للرابطيات، تعلق على التحركات الأخيرة فتقول " لقد فوجئنا مفاجأة سارة في الرابطة والمجتمع المدني للعلاقة السهلة

[26] Sana Ben Achour، la répression pénale de la pauvreté vagabondage et mendicité Nachaz 24 janvier 2021

والمرنة التي تجسّدت بيننا وبين شباب الاحياء ومجموعات الالتراس، فلقد كان الترديد المشترك للشعارات عنوانا حينيّا وموضعيا لهذا التقاطع.. "أولاد الحوم" تحركوا بتلقائية في أحيائهم وعبروا عن غضبهم المشروع، ما اردنا نحن القيام من جهتنا هو فك الحصار على الحوم ونقل المواجهة بالمعني السياسي والمدني الى وسط المدينة وهو ما تم من خلال مسيرة الألوان يوم 23 جانفي ثم يوم 26 جانفي أمام مجلس النواب حين التقت المسيرة القادمة من حي التضامن مع المجموعات الشبابية الناشطة مدنيا وسياسيا واصطدم الجميع بجدار المنع البوليسي، وأخيرا مسيرة يوم 6 فيفري والتي انطلقت من ساحة حقوق الانسان لتستمر بشارع بورقيبة ، كلها محطات جدّ هامة في التحركات الاخيرة ".

سلسة التحركات التي استعرضتها أميمة حملت معها محاولات واعية وإرادية لربط الاحتجاج الأخير بالتاريخ الاجتماعي التونسي وبالسياق المعاصر لما بعد 2011 اي نقله من الحيني والآني الى ضرب من التاريخانية التي تحتاجها كلّ حركة اجتماعية وسياسية تريد أن تكون فاعلة ومؤثرة على المدي المتوسط والبعيد.

نورس وهي منسقة مشروع في الرابطة وعملت بشكل مسترسل بالمقر المركزي مع مناضلي ومناضلات جمعية " دمج "،

شباب من نشطاء الحركة الاحتجاجية ومن أبناء الأحياء الشعبية تؤكد هذا التقارب الغني بالدّلالات. " لقد كنا نعمل صلب لجنة متابعة الايقافات بشكل يومي وحرصنا على رصدها وتوثيقها رغم كلّ الصعوبات، ولقد وضعت أنا نفسي رقم هاتفي الشخصي لدى" حماص " بائع فواكه جافة " في أريانة ومنوبة حين شعرنا بتلاحق الايقافات وتوسعها حتى نيّسر على الشباب التواصل معنا. لقد قضيت 20 ليلة بمقر الرابطة للمداومة صحبة الاصدقاء والصديقات وكنا نحرص باستمرار على ربط الجسور بين عائلات الموقوفين والمحامين والاعلام من جهة، ونعمل كذلك على كسر الحصار على شارع بورقيبة حتى لا يبقى أولاد الحوم في عزلة " .

هذا الانخراط النضالي للرّابطة كمنظمة حقوقية لفائدة ابناء الاحياء الشعبية يذكرنا بتقريرها التاريخي بعد أحداث الخبز سنة 1984[27] والذي جاء فيه" بالعودة الي الوقائع لمعرفة هوية الذين نزلوا الي الشارع وهيمنوا على حركته رأت لجنة التحقيق أن معظمهم ينتمون الى صنف لم يحظ للأسف حتي اليوم بدراسات علمية تحددّ موقعه، سواء في حركة المجتمع أو في هيكلة المجتمع، فالعاطلين ممن قذفت بهم المدارس أو الذين أفرزهم الريف أو اللذين احتموا مؤقتا بأعمال لا تعرف الاستقرار.. وقد كانت هذه

[27]تقرير لجنة تحقيق الرّابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان 1984

الفئات تعامل بإهمال اجتماعي وثقافي وصارت لا تشعر بمبررات الانتماء اليه ".

هكذا اذن نفهم المكانة التي يعطيها المؤرخون لانتفاضة الخبز في التاريخ الاجتماعي باعتبارها المنعرج الذي لعبت فيه الفئات الغير مدمجة والمستبعدة دورا مركزيا، وقد تسارع نسق انتاج وإعادة انتاج التهميش والهشاشة مع تنفيذ السياسات الاقتصادية النيوليبرالية على امتداد عشرية حكم بن علي وهو خيار لم تنجح تونس رغم الثورة في مراجعته والوقوف عند كلفته الاجتماعية.

التطور الحاصل للحركة الحقوقية بعد الثورة والمتمثل في تعدد المنظمات المدافعة عن حقوق الانسان رافقه تطور اخر كيفي يتعلق بالعمل على نشر ثقافة حقوق الانسان وجعلها متاحة للجميع. نورس تؤكد من خلال تجربتها أن العمل اليومي السابق كان له أثر في التحركات الأخيرة " لقد عملنا في الرّابطة من خلال مشاريع محددة مع شباب الاحياء الشعبية ومجموعات الالتراس حول " الوقاية من التطرف العنيف "أو حول " القانون

عدد 5 "[28] الذي يكفل الحق في حضور المحامي عند التحقيق، وفي مشروع "نشر ثقافة حقوق الانسان" ونجحنا، رغم الصعوبات ورغم سوء التفاهم الناجم عن الاحكام المسبقة بين الفئات الشعبية ومناضلي المجتمع المدني المنتمين للطبقات الوسطي، في كسر الاعتقاد السابق حول اللاّعدالة والتمييز في تطبيق مبادئ حقوق الانسان. " حقوق الانسان موش لينا أحنا، ليكم أنتم، أحنا ديما محقورين " هكذا كان ردّ الفعل الأول للشباب الذي شارك معنا في هذه المشاريع والدورات التكونية .. ولكن التكوين على هذه المبادئ والتقارب بيننا وبينهم خلق موّدة وثقة.. ولقد كان هذا الشباب في صدارة التحركات الأخيرة وتعرضت نسبة كبيرة منه للإيقاف والمحاكمة والسجن.. " في هذا تأكيد على التقاطع والتقارب الممكن بين الالتزام النضالي المؤسساتي المهيكل والخاضع للبرمجة والمرتبط بأهداف والتحركات التلقائية والعشوائية.

وحول تقيمها لتجربة المرحلة السابقة، تؤكد نورس بأنها حاملة لوجهين " الأول يبعث على القلق والاحباط خاصة لدى

[28] ، أقر البرلمان في فيفري 2016 "القانون رقم 5 المتعلق بتنقيح وإتمام مجلة الإجراءات الجزائية". . إضافة إلى كونه يمنح للمشتبه فيهم الحق في الاتصال بمحام منذ لحظة الاحتفاظ، نصّ القانون على تقليص الفترة القصوى للاحتفاظ من 72 إلى 48 ساعة لمرتكبي الجرائم، تمدد لمرة واحدة.

هؤلاء الشباب الذين تعرضوا للإيقاف، فكيف يمكن اقناعهم بأن تونس دولة ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان وبأن هذه الأخيرة قيم مشتركة متاحة للجميع ودون حيف بعد ما عاشوه مؤخرا من انتهاك للقانون ومن أيام صعبة هم وعائلاتهم؟ ومع ذلك هناك تواصل مستمر بيننا، نحن نشطاء وناشطات الحقل الحقوقي والشباب الأحياء بعضهم عاد الى المقر ويريد الانخراط ويسأل عن الفرع الأقرب لمقر اقامته للالتحاق. أنا نفسي بصراحة أشعر بمحبة كبيرة نحوهم " ربيت عليهم الكبدة " " وهو الوجه الثاني لهذه العلاقة .

تجربة نورس كمناضلة حقوقية وكامرأة مع مجتمع ذكوري هو مجتمع " الفيراج " وأولاد الحوم في التحركات الأخيرة، رغم جملة الأحكام المسبقة التي قد تعطل التواصل والتفاعل بينها وبينهم، شاهد على أهمية النضالية الميدانية التي تذيب الجليد بين المجالين وتبني الجسور، فما تحقق من كسر لتوق النخبوية التي تعرف بها الحركة الحقوقية في أسابيع قليلة لم يتحقق من خلال عمل سنوات كما تؤكد نورس. اننا هنا أمام تجسيد عملي لما يسميّة أرفين غوفمان . Ervin Goffman . التفاعل وجها لوجه والذي يقيم علاقة بين النظام الاجتماعي والنظام الاتصالي، فالتواصل بين مناضلين كانت تفصل بينهم جدران الجهل بالآخر

وسوء التفاهم والأحكام المسبقة، ولقاؤهم على" مسرح الحياة " الفعلي من خلال دور الأفعال البسيطة وهي النظر، الكلام والحركة الجسدية والعناية المتبادلة التي تتيح المجال لتواصل أفضل وبالتالي لتفاعلية اجتماعية ولتغيير ممكن للعلاقات الاجتماعية وفرص لخلق إطار تجريبي لفعل سياسي جديد ومشترك.

ما نخلص اليه من خلال هذه الشهادات هو ظهور علامات وعي حقوقي لدى شباب الاحياء الشعبية وقابلية للتواصل مع منظمات المجتمع وكذلك كسر لدائرة النخبوية والانعزالية لدى شباب ومناضلي المجتمع المدني، فالتقاطع، لمن استطاع إليه سبيلا، تجلى مجاليا حين تحولت المواجهات الليلية بين الشباب والقوات الأمنية " من الاحياء الى شوارع العاصمة نهارا، ثم اتخذت دلالة سياسية أشمل عبر حضور مطالب الحريات الفردية، سواء المتعلقة برفض القانون عدد 52 او بمطالب مجتمع " الميم ع " ومطالب مقاومة الفساد ورفض العنف البوليسي والمساواة والتنمية جنبا الي جنب . الدّلالة الأخرى تاريخية، ذلك أن مسيرة 26 جانفي 2021 أمام البرلمان كانت بشكل ما احياء للذكري 43 للإضراب العام لسنة 1978 وهو المواجهة الاجتماعية الأبرز بين النظام البورقيبي والطبقة الشغيلة وبين الحزب الحاكم والمركزية

النقابية التي كانت السلطة المضادة الأهم في منظومة حكم الدولة الوطنية، رغم مراوحتها بين وضعي التبعية والاستقلالية مع الحزب، في حين كانت مسيرة 6 فيفري إحياء شعبيا وشبابيا لذكرى اغتيال الشهيد شكري بلعيد ومناسبة اخرى للتذكير بضرورة محاكمة المسؤولين عن هذه الجريمة الارهابية المنظمة والتي تأخرت الى اليوم. وقد مثل إيقاف المناضلة الكويرية رانية العمدوني ومحاكمتها والحكم عليها بالسجن قبل أن يتم إطلاق سراحها لحظة بارزة في حراك الفترة التي نتناولها بالدرس.

الوجه الآخر لهذا التقاطع نرصده من خلال تحركات الأحياء الشعبية في جهة سوسة بشكل خاص، والتي تؤشر على الطابع المركّب لدلالة الهشاشة والاقصاء التي نجدها أيضا في الجهات الساحلية التي تعرف بمؤشرات تنمية مرتفعة مقارنة بالجهات الدّاخلية. تحرك شباب سوسة كجزء من التحرك الشبابي الوطني تقاطع جهويا مع حملة مدنيّة ومواطنية للتصدي لعملية جلب نفايات ايطالية لدفنها في الاراضي التونسية بتواطؤ مسؤولين تونسيين مع مافيا ايطالية وذلك من خلال نصب خيمة اعتصام في مدخل ميناء سوسة لمنع خروج النفايات التي وصلت وتم انزالها على رصيف الميناء .

هارون طالب بمدينة سوسة يصرّح لنا " لقد تحركت الاحياء الشعبية في سوسة ودعت عدة مجموعات شبابية للتجمع بوسط المدينة " باب البحر ". ما ميز هذه التحركات هو طابعها العفوي ومشاركة فئات شبابية عدة، من ذلك الدور المتقدم لمجموعات الألتراس بريغاد روج " وساحليانو " وبيانهم الصادر بعد ما جاء على لسان وزير الدّفاع في جلسة مجلس النواب حول مسؤولية من أسماهم ضيوف المدينة وليس أصيلوها، شباب الالتراس هم مشجعون لفريقهم وهم ايضا مواطنون مسكونون بمشاغل مجتمعهم "[29].

في تعليقه على دور المجتمع المدني والمواطنين وشباب الالتراس في خيمة الاعتصام للمطالبة بإرجاع النفايات " إن هذا التحرك الناجح كان بدافعين: الأول مواطني يتعلق بالحقوق

[29] جاء فيه " نحن الفيراج نحن الشارع نحن الثورة "" العنف يقبر بالعنف و القضبان لا تقتلع بلافتات من ورق اليوم نري جيلا خلق أساليب جديدة للنضال لا تعترف بتفرقتكم الغبية سواء على اساس الجنس أو الجهة أو الأيديولوجيا أو أطركم وحساباتكم بيان ساحيليانو مجموعة الألتراس

البيئية، والثاني يتعلق بالسيادة الوطنية ورفضنا أن تتحول تونس الى مصب نفايات تختاره المافيا الايطالية "[30]

تحرك مدينة سوسة بعناصره المتنوعة وفاعليه المختلفين يضفي على التحركات الأخيرة طابعا متميزا فهو بقدر ما حمل لنا تجربة مقاومة مدنية ناجحة حول ملف النفايات حمل لنا أيضا تجربة تحرك فئات شعبية فقيرة مهمشة ومستبعدة في جهة تعرف بأنها محظوظة، وفي هذه العلامة الثانية تأكيد على ما سميناه المدينة ذات السرعات المختلفة. فصورة "جوهرة الساحل "كوجهة سياحية تخفي صورة الحيف الطبقي والاجتماعي وعلاقات التصادم الممكنة بين المدمجين والمقصيّين داخل المدن الكبرى نفسها بسبب قلة مواردهم او مقرات سكنهم وهامشيتهم وهشاشتهم الاجتماعية، وهو الصورة الأخرى التي أراد هذا الشباب إبرازها عن سوسة والمختلفة عن تلك التي تروج بين هواة جمع صور المنتجعات السياحية المحروسة والمغلقة في وجه شباب الاحياء أنفسهم.

[30] الجامعية عفاف الهمامي مرآكشي عن شبكة تونس الخضراء تؤكد على العمق المدني والحقوقي لهذه الحركة " ندوة صحفية 23نوفمبر 2020 أنظر كذلك
Lilia Blaise la société civile ne décolère pas contre les déchets italiens illégalement exportés à Sousse، le Monde 14 avril 2021

ما نجح فيه شباب المجتمع المدني في سوسة وتقاطعه مع شباب مجموعات الألتراس، ثم دعمه لتحركات الاحياء، هو بوجه ما مختبر تجريبي لتفاعل تواصلي وميداني كسر الحواجز والصورة النمطية للفعل المواطني. وأكّد النزعة القصووية التي سجلناها مع تحركات سنة 2020 عامة .

في القيروان، كانت تحركات حي المنشية لافتة بدورها للانتباه. " صحبي "، معطل عن العمل حامل لشهادة جامعية منذ 13 سنة، شارك في التحركات الأخيرة وتعرض للإيقاف ولا يزال ينتظر جلسة محكمة الاستئناف بعد أن حكمت المحكمة الابتدائية بعدم سماع الدعوى لفائدته، يصرح فيقول " المنشيّة من أفقر احياء القيروان وأفقر احياء تونس. الناس هنا معدمون بلا سند.. غضبهم وانتفاضهم الأخير هو علامة يأس ورسالة سياسية لطلب المرئية "[31]

[31]أنظر :المنشية أكبر حومة منسية..كيف هي الحياة هناك؟ موقع بلا قناع
حيّ المنشـــية هو من أكبر الأحياء الشـــعبية بمحافظة القيروان وهو في شـــكل عمادة بها عديد الأحياء ويقطنها 50 ألف سكان
الى جانب نسبة النموّ الديمغرافي العالية ونسبة الشباب العالية، وتقدر ب 40 بالمائة في كامل المحافظة. وفي المقابل فإن بنيته الأساسيّة ضعيفة ونسب الفقر به عالية وتغيب عنه عديد المرافق ويعاني من مشاكل بيئيّة وصحّيّة. وهي نماذج قليلة من حالة التهميش التي يئس أهالي القيروان من التحدّث عنها .

نذكر هنا بأن مؤشرات التنمية بالقيروان تجعلها الولاية الأكثر فقرا بنسبة فقر تصل إلى 34،9٪ والمعلوم أن قياس مؤشر الفقر يعتمد معطيات انخفاض المداخيل وكذلك الحرمان من النفاذ للحقوق الحياتية الأساسية كالماء والكهرباء والصّحة والتّعليم الأساسي ..

لقد اتخذت التحركات الاخيرة لأولاد الحوم طابعا وطنيا شاملا حيث شملت 17 ولاية وبقدر ما ركزنا في الفقرات الأولى على عرض مقدمات أولية لرصد هذا التحوّل وتنزيله في سياق عام فإننا عرضنا أخيرا بعض الشهادات لفاعلين من مواقع مختلفة لا تغطي كلّ فضاءات التحرك ومع ذلك، نستطيع المجازفة بتأكيد فرضية بحث ممكنة مضمونها أن : التحركات الشبابية الاخيرة وتقاطع أولاد الحوم مع نضالات المجتمع المدني تؤكد حركية مجتمعية

يمتد الحي ذو المباني العشوائيّة المتلاصقة على مساحة واسعة متاخمة لمدينة القيروان. توجد بالحي المذكور مدرستان ومركز للرعاية الصحيّة الأساسيّة. لا يوجد به نادي طفولة ولا دار شباب ولا سوق بلدي ولا مركز ثقافي. بل لا توجد به مساحة خضراء بعد اقتلاع مساحة خضراء من قبل مواطنين بدعوى أنها تحوّلت الى وكر للمنحرفين. كما يوصف بأنه أصبح مناخا مشجعا على العنف وتجارة المخدرات وكذلك على تنامي التطرّف الديني من قبل الشبان خصوصا (أنظر ناجح زغدودي مدونات عربية . المنشية بين التهميش و الوعود الانتخابية) .

ثاوية لا تزال تحتاج للفهم والدراسة من الناحية السوسيولوجية والمنهجية للأخذ بعين الاعتبار عند التفكير والعمل من أجل خطة نضالية للانعتاق السياسي والاجتماعي أي إنقاذ التجربة الديمقراطية التونسية من احتمال التحوّل الى ديمقراطية واجهات تتلحف بشرعية صندوق الاقتراع وتبرر استبداد الأغلبية. ونستطيع أن نجازف هنا باقتراح فرضية بحث مفادها تراجع ثقة المجتمع، وبصورة خاصة شباب الاحياء الفقيرة وسكان المناطق المهمشة، في صدقية خطاب الاسلام السياسي وفي ممثليه السياسيين وتحوّلهم للبحث عن تمثيلية اجتماعية ورمزية لا تزال ملامحها غير جلية من بين عناصرها المكنة قيم الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية والعادلة. إذ من المؤكد اليوم رفض الشباب العيش في " جمهورية الاحتقار"

" لوكة " (اسم شهرة)، شاب من حي التضامن 30 سنة، يؤكد مشاركته في التحرك الأخير كما التحركات السابقة " نحن تحركنا في الثورة " أحنا عملناها "، وتحركنا بعدها لأنه لاشيئ تغيرّ. نحن لم نسمع الا الوعود "ما فما كان الكلام "، لم نلمس أفعالا .. شباب حي التضامن وكلّ الأحياء الشعبية ملّ الانتظار ولا ينظر الى المستقبل باطمئنان، وهو يخرج ليعبّر عن ما يعتمل داخله .. والمفروض أن يتمّ سماعه لا قمعه .. نحن لا نطلب شيئا آخر غير

العيش كالآخرين وهذا يتحقق بمزيد من التضامن والعدالة الاجتماعية "[32]

"علي بوزوزية " ناشط شبابي طلابي سابق ومشارك في التحركات الأخيرة يؤكّد بدوره العوامل البنيوية لهذه الهبةّ "دوافع الفقر هي التي تفسر التحركات الشبابية كما أن الفراغ الثقافي له دور أيضا في العنف والانفلات لدي الشباب ".

ويضيف عند تقييمه للهبة الأخيرة "بأن الحركة الاحتجاجية الأخيرة ينقصها التأطير والوعي مع أن الشباب يريد أن يتحرر من قيود الماضي وخاصة من قيود السياسيين والمنظومة السابقة التي لم تحاول التجديد ومواكبة الأحداث والعقليات والأفكار الجديدة .. وفي رأيي لم يحصل اي تقارب بين أولاد الحوم والحركة المدنية والسياسية وضلت اشكال المساندة في مستوي البيانات " .

القطيعة بين مجال احتجاج شباب الأحياء ومجال عمل النخب المدنية والسياسية جلية في رأي علي، وهو بذلك يتقاطع مع بروز حملة الجيل الخطأ والتي رأت النور قبل الهبة الشبابية

[32] فؤاد غربالي سوسيولوجيا المعاناة من خلال المعيش اليومي لشباب الاحياء الشعبية، عمران عدد 16، 2016 ؟؟

بأسابيع قليلة على شبكة التواصل الاجتماعي، وهي تقدم نفسها حسب أسامة سليم "كحركة أفقية يسارية وكتجمع للغاضبين والغاضبات وأطياف متعدّدة من اليسار الرّاديكالي وتسعي لمناهضة القمع البوليسي والدّولة الأبوية والرّجعيات الدينية والليبرالية " [33].

رأي إسكندر وهو صحفي براديو "واب التضامن" و"راديو 6 الجمعياتي" لا يتطابق مع ما ذهب اليه علي سابقا. بداية يقول إسكندر "للتحركات الأخيرة اسبابها العميقة والهيكلية هنا في التضامن، وهو الحي الأكبر حجما في تونس والذي يفتقر لأبسط الحاجيات الاساسية للشباب سواء المتعلقة بفرص العمل أو بالترفيه .. سنة الحجر الأخيرة عمّقت الازمة نفسيا واجتماعيا .. لا يجب أن ننكر النتائج السلبية للانقطاع المدرسي للفراغ الوجودي والاجتماعي .. للإدمان للعنف والجريمة والانحراف .. غير أنها نتائج لسياسات إهمال وتجاهل تستمر منذ سنوات .. هناك غضب كبير لدي الشباب والذي يميل بعضه الي التدرب على الرياضات العنيف كالملاكمة والجيدو والتكوندو وحتي أعمال النهب الأخيرة التي تناقلتها وسائل الاعلام لا يجب أن تقرأ خارج هذا السياق ".

[33] أسامة سليم نحن الجيل الخطأ الحراك ما بعد الجزبي في تونس موقع الهامش 21 – 05 – 2021

لا يتعلق الأمر إذن بتقديم صورة خادعة لشباب الأحياء الشعبية تغضّ النظر عن حقيقة ومرارة الواقع، فهذه الصورة مركبة ومتناقضة أحيانا كما لا يتعلق الأمر بإرجاع كلّ مسؤولية علاتّ هذه الاحياء لسكانها بل للسياسات التي يخضعون لها، كما يتعلق الأمر بنقد كلّ تبرير للمنحي الامني والبيروقراطي عند التعاطي مع مجمل القضايا التي يثيرها مواطنو هذه الاحياء.

تسمية أولاد الحوم التي يتبناها شباب الأحياء جاءت حسب اسكندر " لتخلق هوية جماعية لشباب من أصول جهوية مختلفة . في التضامن تجد متساكنين من كلّ ولايات الجمهورية ثم هي أيضا إرجاع للوصم السلبي بتثبيت هذه الهوية "للشباب رغم ضيق الأفق تماهي مع هويتهم الجماعية التي يمثلها الحي، فحين نقرأ جدارية من مثل " نحبك يا التضامن " أو " كبآريون " فإننا أمام تعبير على هذه الهوية.

في تناوله لمسألة العلاقة بين شباب الأحياء الشعبية والمجتمع المدني، يظهر اسكندر من خلال تقييمه متفائلا. " لقد لعبنا من خلال راديو التضامن وراديو 6 دورا في إعطاء الكلمة للشباب ونقلنا صوتهم وقاومنا الصورة النّمطية السّلبية التي يروجها الاعلام الموّجه .. وما حصل من تقارب بين أولاد الحوم وشباب المجتمع المدني قرأ لدي البعض على أنه تحويل وجهة

التحركات غير أنه مثل كذلك جسرا لتواصل ممكن .. عديد الشباب يؤكد لي " يا اسكندر نحسوك كيفنا تعبر علينا بلغة أخري أما تعبر علينا " . "

هذه شهادة حيّة على قيمة الحضور الميداني والقرب الذي تسلكه فعاليات المجتمع المدني والذي يسهم في بناء جسور تواصل وتفاعل قابلة للإستمرار وهي الصورة القوية الدّلالة التي نجدها لدي جورج زيمل. George Simmel حين يقارن بين " الباب " و " الجسر" ، فالأول يفصل بين الدّاخل والخارج ويعطّل التفاعل بينما يمنح الجسر مجالا للحركة والذهاب من ضفة الى أخرى، من عالم الأنا الى عالم الأخر، مما يجعل من أوكد عناصر تشكّل الحياة الاجتماعية لدي زيميل هي القدرة على مدّ الجسور ، وهو ينظر الى الحياة الاجتماعية بمثابة الحركة التي يستمر من خلالها الفعل المتبادل بين الأفراد ويتواصل التأثير الذي يمارسه كلّ فرد على الغير .

لأجل ذلك نستخلص أن مسار الحركة الاجتماعية بكلّ عناصرها كحركة هادفة للتغيير لا يمكن فهمها في تونس اليوم بمعزل عن مجالات ومساحات وفرص التفاعل، بل حق لنا أن ننظر الى التحوّلات السياسية والقانونية والتشريعية كانعكاس لما يعتمل داخل المجتمع من تحوّلات ناضجة لا تنتظر إلا التكريس

على المستوي القانوني، فالمطالب الخاصة بتكريس قيم الحرية والمساواة في القانون لا تمثل امتدادا للحركة الاصلاحية فحسب بقدر ما تأتي من رحم حراك اجتماعي ملموس وفاعل وهو ما يعني قلب المعادلة التي تجعل المنعرجات التشريعية أداة لتغيير المجتمعات وذلك بجعل هذه الأخيرة تعبير عن توق اجتماعي عميق [34].

[34] عماد المليتي التحولات الاجتماعية والحريات الفردية لدي الشباب في تونس اية علاقة؟ مجلة عمران ربيع 2020 عدد 38

خاتمة

مكنتنا هذه المحاولة التحليلية المختصرة التي استندت الى محصلة ملاحظات ومحادثات لا شكلية من تسليط الضوء على ما سميناه انتفاضة غضب شباب الاحياء الشعبية وذلك من جهتين رئيسيّتين: الأولى تنطلق من هويتهم ذاتها " كأولاد الحوم " والتي من خلالها افتكوا مكانة في الفضاء العام وعبروا بواسطتها عن تقديرهم لذواتهم ونرجسيتهم كطاقة دافعة للفعل، فالجدران (الحدود) داخل المدن ليست مادية بل هي أيضا وخاصّة رمزية وسلوكية. تلك هي الحقيقة الجديدة المثبتة اليوم والتي على اساسها نفهم العلاقات الطبقية والاجتماعية ونقرأ عبرها دوافع وتعبيرات ما يشعر به أولاد الحوم من حرمان نسبي وما يريدون قوله حين يتكلمون ويحتجون بالطرق التي يرونها مناسبة.

الجهة الثانية كانت محاولة رصد لتجليات وأبعاد التقارب الذي تحقّق بينهم وبين شباب المجتمع المدني والذي تبينّ أنه لم يكن محض صدفة بل جاء في مسار من العمل الدؤوب أصبح بفضله المجتمع المدني والحراك الاجتماعي حاضنة تجريبية

لتجديد الفكر والممارسة السياسيتين في أفق ديمقراطي دامج. وهو ما لا بدّ من تلقفه والبناء عليه.

هذا الحدث قد يكون ولّى وانتهى لدى البعض ممن يتمنّون صمت المجتمع المستحيل، غير أنّه وضع في نظرنا الحركة الاحتجاجية الشبابية الاجتماعية والمدنيّة في مقدمة المواجهة مع منظومة حكم أفرزتها الحواصل الانتخابية للمواعيد السابقة، وبقدر ما يبقي صندوق الاقتراع مكسبا حملته ثورة الحرية بلا جدال ومصدر شرعية لسلطة وسيادة الدولة على مواطنيها، غير أنه أفرز أيضا من داخله وبشكل يقارب المهزلة التاريخية نقيضه المثل العليا المتخيلة للديمقراطية وأشر لاحتمالات عودة مرّة الى الوراء.

وبقدر ما ثمنّا هذه الدّلالة السياسية لانتفاضة الاحياء الشعبية فإنه يبقي من المهم مزيد توجيه الاهتمام لطيّات هذه التحوّلات التي تجري في مجتمع الشباب وفي مستويات محليّة وموضعيّة وقطاعية وحتى ذاتية وفردية ووجودية. هي تحوّلات صبورة ومجهرية حينا وغاضبة حين آخر وتعرف توهّجا وضمورا الاّ أنها تبقي حاملة لبذور تغيرات قيميّة وسلوكية وسياسية، فسمة الهبات الشعبية والشبابية أنها ر بما تأتي قبل موعدها أو بعد موعدها في حسابات العقل السياسي والمهم سياسيا هو أن

نرافقها حين تأتي وأن نستخلص دروسها بهدف إنقاذ التجربة الديمقراطية التونسية من احتمال التحوّل الى ديمقراطية واجهات تتلحف بشرعية صندوق الاقتراع وتبرر استبداد الأغلبية. ونستطيع أن نجازف هنا باقتراح فرضية بحث مفادها تراجع ثقة المجتمع، وبصورة خاصة شباب الاحياء الفقيرة وسكان المناطق المهمشة، في صدقية خطاب الاسلام السياسي وفي ممثليه السياسيين اللذين تحوّلوا إلي جزء من منظومة العطالة وجزء من قوي" الثورة السلبية " التي تبقي على هيمنة المستفيدين ، وهو ما حوّل وجهة هذا الشباب للبحث عن تمثيلية اجتماعية ورمزية لا تزال ملامحها غير جلية من بين عناصرها المكنة قيم الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية والعادلة، والتي بدأت تتحوّل الى اطار مرجعي تنخرط فيه عديد التحركات والمناصرات إذ من المؤكد اليوم رفض الشباب اليوم العيش في "جمهورية الاحتقار".

البعد الأخير الذي من المهم التوقف عنده والذي يستوجب اهتماما أعمق لاحقا هو ربط الحركة الاحتجاجية المحلية والمجتمع المدني والباحثين في تونس مع مسارات حركة عالمية لا تزال تشهد موجات متتالية من الرفض والتعبئة في المنطقة العربية التي عرفت موجة ثانية من الانتفاضات وفي كلّ أنحاء

المعمورة ، وبقدر ما يعد ذلك علامة على تأهب قوي العالم الجديد المناهض للعولمة النيوليبرالية والدّاعية الى تغيير السياسات الاقتصادية والاجتماعية نحو عالم أكثر عدل فإنه يجعل من كلّ تجربة مدرسة نضالية في حدّ ذاتها سواء من جهة عدّها مرجعية اثراء للتفكير الاستراتيجي حول دور المجتمع المدني والحركات الاجتماعية والقوي السياسية في تصور عالم جديد أو من جهة ابتكار وسائل واشكال عملية لفعل سياسي ديمقراطي منغرس في الواقع ويستهدف تغييره .

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
2 شارع فرنيما عماره ابن خلدون (النانسيونال سابقا)
الطابق الثاني شقة 323 تونس باب بحر 1000
الهاتف: 129 325 71(216+) الفاكس: 128 325 71(216+)
ftdes.net contact@ftdes.net

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG